
رواية
فيصل خرتش
الطاغوت
TYRANNY
200L
TAKE YOUR FREEDOM
200L
Jidar
Culture & Publishing

الطاغوت

الكتاب: **الطاغوت**
المؤلف: فيصل خرتش
رواية

الناشر:
جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية
info@jidar.net | www.jidar.net

الطبعة الأولى 2025
الترقيم الدولي:**978-1-326-35387-2**
التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

Tyrant
Author: Faisal Khartash
Novel
Publisher: Jidar for Culture & Publishing
.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: **978-1-326-35387-2**

فيصل خرتش

الطاغوت

رواية

كنّا أربعة، جلسنا لاحتساء البيرة، اشترينا عدَة زجاجات وعدنا إلى البيت... أخرجت البندورة، وفتحنا الجريدة، كان بها المخلل الذي أخذناه من بائع الفول في باب توما، قلنا لبعضنا: كم لديك؟ وكان المبلغ الذي بحوزتنا يساوي ثمن عدَة زجاجات من يتر من البيرة مع وجبة فول، وهكذا ذهبنا إلى الفوال الذي وضع لنا الصحون وقبلها صحن السرفيس الذي يحتوي على بصل ومخلل وعرق نعناع، كان لدينا جريدة، فقبل النهاية بقليل دلقنا المخلل، دفعنا الحساب واتجهنا إلى بائع العرق، اشترينا منه ثم توجهنا إلى البيت، وها نحن نفتح الجريدة ونقطع البندورة، ونضع الكؤوس ونصب البيرة، ونرفع الكؤوس عالياً، نطرقها بعضها، في صحة الخلاص من الخدمة الإلزامية.

لم يكن لدي أي طعام، لم يكن لدي قطعة خبز، لم يكن لدي سوى ثلاث حبات بندورة من الظهر، قطعتها ووضعتها على الجريدة، وبدأنا مرحلة فقدان العقل، وشيئا فشيئاً، راحت الخمرة تمرّ في عروقنا إلى دماغنا، فتجعله يستيقظ من سباته ويتحرش بالاثنين الباقيين.

كنا ثلاثة فقط في رحلتنا الأولى، رابعنا كان يتمشّى في الصالحية، وحين وصل إلى الدار، ودخلها، رأى النور الذي يضيء النافذة كمشكاة، صرخ علي، وعندما قلت له: أنّ تفضل، دخل، وقال: ماذا تفعلون؟ قلنا: نحتسي البيرة، قال: عندي زجاجة من لبنان، قلنا له هاتها: فقفز، وأحضرها، وأحضر معها علبتي سردين، ورغيف خبز، فهذا لم يكن قد سرّح، كان متطوّعاً، وقد أخذوه إلى لبنان، ضمن اتفاقيات لا أعرفها، أو إنني قد نسيت، يأتي كل أربعة أيام، يوم مبيت، وأراه في ذلك اليوم، منذ الخامسة

صباحاً، يغلي الشاي عند باب البيت، ويدرج سجائر الحشيش، ويشفط ويدعوني إليها، أقول: انتظر قليلاً ريثما أنتهي من أعمالي الصباحية، فأدخل إلى المطبخ، تصدمني تلك الرائحة الواخزة، فأتشجع، إنها تذكرني برائحة مراحيض الدورة، يضاف إلى ذلك النور الواهن، الذي ينبعث من مصباح شاحب، جدل لـه الأعمى سلكاً من نحاس، كي لا يسرقه أحد، هو وصنبور الماء، أمّا كيف جدل له هذا السلك، فهذه وحدها قصة.

أنهي أعمالي الصباحية، وأكون قد شمّرت يديّ ورجليّ، أخرج من المطبخ فآخذ المنشفة المعلقة على مسمار، أدنو من صنبور المياه الذي يصلُ علوه إلى ارتفاع قامتي، أغسل يدي ورجلي ممّا علق بهما، فأصل إليه وأنا ما زلت أنشف يدي ووجهي، ألطي بجانبه فيناولني سيكارة الحشيش، ويصب لي كأساً من الشاي، أشكره على هذا الكرم، فيقول لي: اشرب... يا رجل... دخن عليها تنجلي، انظر إلي إنني أترغل مثل العصفور، فآخذ منه السيكارة، وتكون جمرتها قد استطالت، ويكون هو قد راح يجهز سيكارة جديدة، هكذا يشق سيجارتين ويضعهما في ورق السجائر الملصوق، يضع الفلتر أولاً، بعد ذلك يضع السيجارتين ثم يدرجهما، وبسرعة البرق تصبح السيكارة جاهزة، يشعلها فتشتعل، لقد ترك لي السيكارة الأولى.

ومع ترانيم الصباح، وصوت عبد الصمد، انهي السيكارة الأولى مع كأس الشاي، ويكون رأسي قد اتّسع إلى درجة لم أعد أحتملها، أتركه وأنا أغني:

يا لأسمر اللون، يا لأسمراني

ويكون هو الآخر قد تفتق عليه الضحك، يضحك من غنائي، ربما لا يعجبه صوتي وربما يضحك من شيء آخر.

قال: هذا آخر يوم لك هنا.

قلت: آخر ليلة.

قال: صحيح، نحن في الليل، أليس كذلك؟

فتح علبتي السردين ووضعهما في صحن كان قد جلبه معه، لم يبق شيء في البيت، حاجيات العسكر، كنت قد جمعتها في كيس البحار، لم يبق سوى فراش إسفنج وتخت عليه فراش إسفنج هو الآخر، كنت قد أعطيت التخت للممثل الذي يجلس معنا.

المنتصر الذي يزيدني طولاً بمقدار ستة أصابع، وكنت قد رأيته اليوم، ودعوته لأن يأتي ويأخذ السـرير، فما كذب خبراً، في السـابعة والنصـف كان يقف عند باب البيت، قلت لـه أن يدخل، قال: إنني أقرف من هذه الرائحة، الحمد لله أنك خلصت، قلت لـه الحمد لله على ذلك، فدخل وجلس على طرف السـرير، وأخذ يتفحصـه دون أن يبدي رأياً، أخبرته بأنها سـتكون آخر ليلة لي هنا، عند الصـباح سـأترك المفتاح لـه، ها هنا، وأشـرت إليه أين، عند مدخل الباب فوق الكشـف، ويمكنه أن يأتي في أي وقت شـاء ويأخذ السرير، وما سيبقى في الغرفة من أغراض.

تعرفت على المنتصـر في بداية الدورة، كنت أذهب كل خميس لأبلّ عروقي عند أبي الياس، ألبس مدنياً وأتجه إلى السـليمانية، المنطقة المخصّـصـة للنصـارى، وأكون قد تأبطت أحداً من أصـدقائي أو أكثر، نجلس إلى رفّ وكرسـي عالٍ، وقليل من المقددات وكثير من العرق، كنا لا نخرج من عنده إلا ونحن نمشـي لام ألف، يومها نظرت إلى هذا الذي يحلق على الصـفر، قلت إنني أعرفه، وجاهدت بذاكرتي، فلم أفلح، وبعد ذلك تقربت منه، ومن سؤال إلى سؤال، عرفت أنه يخدم في المدرسة ذاتها، وابن دورتي، لا بل الأنكى من ذلك إنه الذي ينام في السرير السفلي، لأنني أنام في السرير العالي، فتصوّر يا رعاك الله.

قال إنه سيقيم في الشام فترة، قد تطول وقد تقصر، عند ذلك قلت له تعال: وخذ السرير من عندي، قال: مساءً على الساعة؟ قلت السابعة والنصف.

وفي الوقت ذاته كان يزكم أنفه بالرائحة القاسية.

هذه الرائحة لا ندري من أين تأتي، فالمطبخ وبداخله المرحاض تنبعث منه روائح كريهة للداخلين على الدار، فما إن تقبل من ناحية القنطرة، حتى تسـتقبلك هذه الزنخة ثم تنحرف إلى اليمين وتدلف إلى الدار العربية، حتى تعج في رأسـك الروائح، قل هذه الروائح تأتي من المطبخ، لكن عندما أفتح باب البيت وأنزلق عبر الدرجة الوحيدة التي تنحدر إلى الأسـفل حتى تداهمني الرائحة، ربما أخف قليلاً من رائحة المطبخ، أمّا من أين تأتي، صدقني لا أعرف، ربمّا من دمشق القديمة، فنحن نسكن في حي العمارة، منطقة حكر السـرايا، وربّما نجاور مرحاضـاً في الطرف الثاني، فأكثر من مرّة وجدت

حفرة بحجم جرذ في الجدار، كنت أسدها بما تيسر لي من الزجاج المكسور والأسمنت، لكن الجرذ، بعد فترة، يفتح ثقباً آخر في الجدار. وهكذا دواليك.

في صحة القعدة الحلوة، والذي جمعنا من غير ميعاد.

ويكررون ورائي الجملة، ونشـــرب مزة من العرق، ونمدّ أيدينا فنتناول إمّا قطعة بندورة، أو قطعة مخلل، بينما ذلك يمزمز من صحن السردين، ثم يمسح يده التي كان يمزمز بها ويعلو صـــوته بأغاني لصـــباح فخري أو غيره، إذ لم أكن أميز بينه وبين غيره، وقد كان فهد، صـــاحب صـــوت جميل، اهتز له البيت الذي لم يكن به شـــيء وأكيد أنه جعل الجرذان تسكت وتنصت إليه.

ما علينا، صحة يا شبان.

صحة على قلبك.

ونشرب حتى تحسبنا نرى الديك حمارا.

كدنا نقضي على نصف الزجاجة الأولى، عندما جاء أبو حسان ينقر الأرض نقرات متتابعة، ناداني، فلبيت النداء، فتحت الباب ليتهوّى البيت، وقلت لـــــه: تفضـــل، لم يتفضـــل الأعمى، قال: أنا ذاهب إلى البيت، هل تريدون الذهاب إلى مكان آخر؟ وحين أجبته بالنفي، قال: الدار بأمانتك، ماذا تشربون؟ قلت: لا شيء، إننا نتعشّى، قال: الله يبسطكم... ومضى إلى داره التي لا أعرف أين تقع.

إن من يدخل دار أبي حســـــان وينجو من الغبش الليلي القادم من المطبخ مع الرائحة النفاذة التي تزكم الأنوف، يصـــاب بالهلع من كثرة العســـاكر الذين يســـكنونها، فبعد أن تودّع صـــنبور الماء يســـتلمك القبو الأول وفيه عســـكريان، ثم تصـــعد إلى أعلى ويأتيك بيت واســـع هذا لفهد ومعه ابن خاله، هو عســـكري يخدم في الإدارة الطبية، ولا أعرف من يدفع الإيجار منهما، هو أم فهد، أمامي وعلى بعد خمس خطوات يأتيك السلم إلى الطابق العلوي، تصعد عليه، وعندما تنحرف باتجاه الأعلى، تستقبلك غرفة تقع فوق المطبخ يسكن فيها شاب ولا أحلى ولا أجمل، نسيت اسمه الآن، غرفته مرتبة وأنيقة، حتى أنه كان عنده ســـريران، فتخلّى عن واحد لي بســـعر أقل ما يقال فيه أنه

بخس... وها أنا أعطيه لصديقي الممثل، الذي سيتزوج عليه فيما بعد، هنا في دمشق قلب العروبة الصامد.

عندما تصعد قليلاً، تخاف أن يقع بك السلّم، وهكذا تتوكأ على نفسك إلى أن تصل إلى الفسحة الغربية ومنها تطل على ثلاثة بيوت، لم أدخلها إطلاقاً، صعدت مرّة ورأيتها مقفلة، فأسرعت بالنزول، وأنا أقول، يا لطيف الطف، نزلت أتوكأ على نفسي وعلى الجدار بيد واليد الأخرى على مساند السلّم كيلا أقع.

ضحك الشاب الحلو وهو يراني أسير على السلم، أقسم علي أن أشرب كأس شاي، وجلست عنده، وتعارفنا، فإذا هو يخدم في القطعة التي أخدم فيها وفوق هذا إنه ابن مدينتي، قال: إنه وحيد أبويه، وقد أحبّ بنتاً، ولمّا لم يخطباها لـه، قرّر أن يجاكرهما، فتطوع في الجيش، وهو برتبة رقيب الآن، وبعد فترة سيكون رقيباً أوّل، ثم مساعداً، ومساعداً ثانياً ومساعداً ثالثاً، وعندها سوف يتسرح، هو غير متزوّج، لن يتزوّج إلا بعد أن يتسرح من الجيش، أجرى حتى الآن ثلاث عمليات انتحار، وفشلت كلها، يريد أن ينقلوه إلى مدينته، لكن وزير الدفاع أصدر بياناً يقول فيه، إن كل إنسان يجب ألا يخدم في المدينة التي ولد فيها، تقول لـه: طيب ما هو رأيك بفلان وفلان وفلان، الذين ولدوا في المدينة ويخدمون فيها، يقول لك: هذه مهمة خاصة، يا أخي اعتبرنا مهمة خاصة، هذا إذا تمكّنت من رؤيته، أو مقابلته.

أبو حسان الآن نائم، ربما يمازح زوجته، مرّة جاؤوا جميعاً إلى هنا، هو وأولاده وزوجته، زوجته سمينة وقصيرة، عجيزتها لا يمكن أن تدخل في الباب ذي الدرفتين دون أن تفتح الدرفة الثانية، أمّا دارنا، آسف للتسمية، يمكنني أن أقول: دار أبي حسان الأعمى الثانية، ولكن من أين جاءته هذه، أقصد الإصابة في العمى، سألته مرة، وكان يجلس عندي: يا أبا حسان، لا تؤاخذني بهذا السؤال، وكنت قد صببت لـه كأس الشاي، من أين جاءتك الإصابة بالعمى، قال: آه... وضحك، لا أدري لماذا... اسمع يا بني، كنت في يبرود صغيراً، يعني تستطيع القول كنت في السادسة من عمري، ربّما أصغر قليلاً ربّما أكبر قليلاً، وهجمت علي الكلاب الشاردة، عضتني في أعلى فخذي، ها هنا، وأشار بيده اليمنى إلى المكان، ومن يومها أصبت بالعمى، هل استرحت الآن، يعني كنت

ترى قبلاً، كنت أرى والحمد لله جيداُ، كان عندنا بقرة وحمار وأخوة خمسة وأب وأم، وكان هناك ذباب كثير وبعوض، قلت له: وأسود وأبيض وأحمر، قال: وأخضر وأصفر وأزرق، قلت: يا الله كم أنت رائع، يا أبا حسّان.

ما إن تعبر شارع السادات، وأنت لما تنته من صندويشة الفلافل التي اشتريتها من مكان ما قبل الجامع، عموماً، يوجد بائع فلافل جيد، يضع لك خمسة أقراص صغيرة في الرغيف المفتوح ويهرسها جميعاً، ثم يضع اللبن الرائب قليلاً المخلوط بالنعناع، بعد ذلك يضع البندورة والخيار والبقدونس، ويضع ورقات نعناع، ثم يلفها ويناولك إياها، تعطيه ثمنها وتخرج من المحل وتبدأ العرّ؟ لأن الجوع قد افترش معدتك، تسير وأنت تعبر الجامع ثم بناية واثنتان وثلاث، لا أعرف كم عدد البنايات يعني قبل أن تصل إلى كلية الفنون الجميلة بتماثيلها الثلاثة التي أمامها، والتي تتدفق النوافير منهما، والأنوار تصدح، لا يجوز لنا أن نستخدم كلمة "تصدح" للأنوار نقول الموسيقا تصدح، وهو تعبير أكثر دقة، المهم، لم تنته صندويشة الفلافل، إذاً فلنعوج، وهذه كلمة عامية، لم أجد غيرها في هذا المجال وحين سأصلح الرواية سأبدلها، أنا أعرف أية مفردة سأضع بدلاً عنها، عوجنا إلى اليمين، في الحارة العريضة ثم عوجنا إلى اليمين وبعد ذلك إلى اليسار ثم أيضاً إلى اليسار ثم تقابلك قنطرة ودار تسمّى دار أبي حسان الأعمى ومن هنا تبدأ الروائح الكريهة.

أمام الدار مباشرة دار نظيفة هي لبنت وأمها أو قل لهذه المخلوقة وأمها فنحن لا نرى في هذه الدار، سوى البنت وصوت الأم يصرخ بها أن تدخل فتجيبها، إنه لا يوجد أحد، انتظري قليلاً، وأكون أنا الواقف بجانب الصنبور وقد تمشطت وبللت شعري بالماء، أو أكون قد (سشورت) شعري وحلقت ذقني، أو أكون قد شطفت يدي اللتين برزتا من تمارين الضغط فقد كنت كل يوم صباحاً في القطعة العسكرية طبعاً، أجري خمسين تمريناً، قل أكثر ولا تخف.

تخرج هي وأظن أن اسمها منيرة على اسم جدتها لأبيها، أقول تخرج الحسناء منيرة وقد فرقت شعرها هي الأخرى، وقرصت خدودها ليظهر لهما احمرار طفيف، وكحلت عينيها كحلاً أسود فاقعاً ووضعت شيئاً من الحمرة على شفتيها، أمها تبعق عليها أن

تترك هذا الضراب السخن الباب وتأتي إليها وإلا فإنها تقسم الأيمان وبكسر الهاء بأنها ستخبر والدها، وحين تعظم الأمور وتقسم الأم الإيمان بأنها ستخبر الأخ... حين يعود، وأنا من ناحيتي لم أر أباً أو أخاً وأقسم على ذلك.

ذات مرّة عدت من القطعة العسكرية، كي أبدل ثيابي وأذهب إلى كلية التربية، نسيت أن أخبركم بأنني مسجل في كلية التربية، وقد طردوني منها لأنني موظف غير متفرّع، وهذا سيأتي الحديث عنه في زمنه لأن منيرة تنتظر، وقد وجدتها على الباب، فصبحت عليها، ردّت التحية بأجمل منها، أسرعت إلى الداخل أهوش على صنبور الماء وعلى المشط والمرآة، وخرجت إليها مثل الزر نجف، لا أعرف ما معناها، ولكن كان أبي يقولها لي كلما رآني جميلاً ووسيماً، وهذه كانت من القلائل، قلت لها: أنا ذاهب إلى الجامعة، عندي محاضرات، قالت: بكير. وهنا أدركت بأنها وقعت في حبائلي، خاصة وقد فتحت صدرها، وأجرت باقي الأشياء التي تم ذكرها من حَلَق للأذنين وأحمر للشفتين وفرقة للشعر، اقتربت من الباب، قالت: أمي عند أختي أم جمال، وماذا يعني ذلك؟

يعني تعال إلى هنا وجذبتني إلى الداخل، وأغلقت الباب، وراحت تعانقني بشدة، وأنا أشير إلى أنّ أحداً ما سيأتي، وهي راحت تقبلني وتضع ركبتها في منتصفي، وتشدني إليها، كأنما لم تمارس التقبيل منذ زمن، يا أخي الإنسان ليس حجراً، فما كان مني إلا أن اعتصرتها وهصرتها ورحت أقبلها وألصقت وسطي بوسطها، لا بل أمسكت بلحمها من تحت التنورة، إلى أن شهقت ثلاثاً وارتمت على الجدار مغمضة العينين ذابلة الرأس، استكانت كل حركة في جسمها، ذابت في اللذة، وأقعت تريد النوم، وكنت أشخر فوق رأسها وأنا أهزّ وسطي، إلى درجة أن النعاس سيطر عليَّ ولم أتمكن من طرده، انتبهت إلى ذاتي وقلت لها وأنا أنظر إلى وسطي، هل هذا جميل، فابتسمت، وأنا فتحت الباب أريد الخروج. وهي تناولت رأسي بيدها وقبلتني قبلة كلها شكر وامتنان.

كان وسطي قد تندّى، فهرعت إلى الدار، ثم إلى البيت أغيّر البنطال وأجفّف نفسي.

* * * * * * *

منذ فترة لم أرها، كنت أداوم في كلية التربية وأثير النقاشات الحادة، بين علم النفس الاشتراكي وعلم النفس البرجوازي، وكان أكثر الدكاترة قد ملّوا مني وعجزوا من نقاشاتي، خاصة ومعظمهم قد درس في الدول الرأسمالية. وكان المعيدون يتقافزون إلى الدول التي تطرح الاشتراكية، كنت أحضر إلى الكلية مخموراً من ليلة أمس، أجد مقعدي فارغاً، فأضع كتبي، ثم أسعى بفنجان قهوة وأعود إلى كتبي فأحضنها وأنام، أستغرق في نومي، لكن فجأة يهتز كياني، فأستيقظ مذعوراً، بخاصة إذا علمت أن الدكتور قد أخطأ، فالجريمة لا يمكن أن يدخل فيها العامل الوراثي، إنه شكل من انحطاط المجتمع، أرفع يدي وأبدأ المناقشات، سواء وافق الدكتور المحاضر، أم لم يوافق.

هذه المناقشات وغيرها، أعجبت وضاحاً، ابن الدورة البار، والذي لا أجرؤ أن أقول أين كان يخدم، كنا نتمشى بعد المحاضرات في حي الصالحية، ذهاباً وإياباً، نُسمع الفتيات كلمات غزل وإن وجدنا واحدة داشرة "نكلب" عليها، لا نتركها إلا إذا وبختنا، وفي إحدى هذه المرات التي كنا نتجوّل فيها، قال لي: إلى متى؟، قلت: ماذا؟

أفهمني إلى متى هذه، بأن هناك مجموعة من البشر، أو قل ليسوا بشراً، يستنزفون خيرات البلد، هم وأبناؤهم، وينقلون أرباحهم إلى بنوك سويسرا، قلت: ما شاء الله. وراح يعدد أفراد الطغمة واحداً بعد الآخر وأنا أهزّ برأسي، وكنا قد ضربنا شوطاً ثامناً في حي الصالحية المليء بالفتيات الناضجات، من دمشق والأصقاع التي تليها، ومن المحافظات والدول العربية، كل واحدة ترتدي أجمل ما عندها وتنزل للتسوق، وتجرّ زميلتها معها، والزميلة تجر الصديقة، وهذه انتظريني قليلاً حتى أسوي شعري، وتلك نسيت أن تفرده، وثالثة بقي الروج يا حبيبتي، أنا نسيت حمالة الصدر، فتركتها تشدّ الكتف شدّاً، وهذه تركت الزنود تتداعى أمام عيني، وأخرى فردت البطن وهذه المؤخرة، وهذا يقول لي بأن الناس يسرقون، يا أخي كيف يكون ذلك؟ بالله عليك!

كان قصيراً مدعبلاً، قرعته تصل إلى نصف جبينه، عريض المنكبين، بعثي عضو عامل، وأنا بعثي عضو عامل، يكره النظام، وأنا لا معه ولا ضده، خاصة والقوات السورية دخلت إلى لبنان، لوقف نزيف الدم العربي، لا أدري، ربما نزيف الدم

اللبناني، هكذا كان يقول لي الرائد سـعدو الملحم، في الاجتماع الحزبي، بعد أن نردّد الشعار، ونقرأ البريد الوارد، في بند ما يستجد من أمور يكرّر ذلك دائماً، ويقول سجل عندك فأسجل، لقد كنت الكاتب الرسمي لمحضر الجلسة السابقة.

كان يأتينا الرائد سعدو الملحم كل ثلاثاء الساعة الثانية عشرة وبعد أن نردد الشعار نجلس صامتين، فيقرأ علينا البريد الوارد، ونظراً لأن عددنا قليل، لا يتجاوز أصابع اليدين، فقد كان يقفز فوق "التفقد" أو أنه يطلب مني أن أسجله فأسجله دون أن أقرأ الأسماء بصوت مرتفع، ثم ينتقل إلى البند الذي يليه فنتحدث عن الوضع العربي ثم الوضع التنظيمي ثم الوضع المهني بعد ذلك "ما يستجد من أمور"، ولو أنني أعرف بأن هذه الأخبار سوف تنتقل إلى خارج التنظيم لبحت بها وكشفت أسرار التنظيم. المهم في الأمر، أنه عندما نصل إلى "ما يستجد من أمور"، يكرر علي أن أكتب "وقف نزيف الدم اللبناني" فأسجل ذلك، بعد ذلك نجلس فترة صمت، ثم يقف على قدميه ليقول "نردد الشعار"، ونقف جميعاً نردّد: "***أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة***".

المجنون يريد أن يضيع كل ذلك عليَّ، وفي الجولة التاسعة اقترح علي أن أذهب معه فقبلت، واتفقنا على يوم يكون فيه اليوم التالي عطلة، وأن نخرج من الكلية تحت جنح الظلام، إلى بيته، ثم نأخذ عرقاً معنا وطعاماً، فوافق على الفور.

وفي اليوم الموعد، وتحت جنح الظلام، خرجنا من كلية التربية، لا نلوي على شيء، ذهبنا إلى المرجة، وابتعنا العرق واتجهنا إلى الباص، ولما كنت لا أعرف الاتجاهات، فلم أدر في أي جهة مضينا. بعد نصف ساعة أو أكثر، لا أدري، فالزمن لم يعد يهمني، لأنه شاهد مقتول، وصلنا يا سيدي إلى منطقة بها عدد من البيوت قطعناها، ثم اجتزنا أرضاً زراعية، ووصلنا عند بائع فلافل اشترينا منه عدداً من الأقراص، وأخذنا نعناعاً وبقدونساً، لأن الفليفلة والبندورة والخيار توجد عند صديقي في البيت، لا تقل لي دائماً فلافل، هذا كان وضعي، وأقسم على ذلك، دلفنا في منطقة زراعية أخرى، إلى أن وصلنا، طرق الباب طرقة معلومة، ففتح الباب واستقبلتنا امرأة تقول للقمر قم حتى اقعد مطرحك، أعددنا العشاء، أو أعده وحيداً، أو أن المرأة وهي

صـبية في الخامســة والعشــرين، مهرة، غزالة، أو هي الاثنتان معاً، طموح، عرّفها عليَّ وذكر اســمي الأوّل فقط، قال إنها زوجة صــاحب الصــورة، فنظرت إلى الصــورة كانت لشــاب وســيم، يرتدي ثياباً مبرقعة، أنا لويت رقبتي ذلاً وانكســاراً، ثم أمرها بأن تخرج المنشــورات، مدّت يدها إلى صــدرها وأخرجتها نعم هذه أعدادا أربعة مكتوبة بخط اليد كانت تضم بحنان الثديين.

ناولتني إيّاها، شــعرت بعذوبة لا تنتهي، وراح يحدثني عن الصــراع الطبقي وتفرعاته، ثم قال: يا أخي تعال نقرأ الماركسـية، قلت: ماذا؟ قال: نقرأ الماركسـية ونبحث في أيها يتطابق مع واقع بلدنا، وأيها لا يتطابق، ونأخذ بالذي يتطابق، ونترك الذي لا يتطابق. ما رأيك؟ قلت: نأخذ بالذي يتطابق...

كانت الأوراق في يدي، شـعرت بحنان عجيب، إلى صـدر أمي، إلى صـدر الفتاة التي لم أرها بعد، إلى صــدر منيرة، إلى صــدر جميع النســاء، كنت أمســكه ببطن كفي وأداعبه حتى أصـل إلى الحلمة، فافركها قليلاً، أحســســت بها تتأوّه وتحاول أن تقبلني، كنت أبتعد عن فمها وألصق فمي بحلمتها، أداعبها بلساني، أداعب السمرة الوردية التي تحيط بالحلمة، أرضــع حلمة جميع نســاء العالم. وهذا القصــير الممتلئ يحدثني عن الصــراع الطبقي، ويل لأمة لا تأكل من زرعها، وهذه الجملة من أين دخلت إلى نصّ العمل لا أدري، دعها تمشي، أطلقها فكل ما قدر الرحمن كان مفعولاً.

أمسـكت النشـرات الأربع المكتوبة بخط اليد، الواحدة لا تتجاوز الصـفحتين، وربما الثلاث. شـربنا العرق، وأكلنا الفلافل، والمرأة التي زوجها في الصـورة يرتدي الثياب المبرقعة، جلسـت معنا، صـببنا لها كأسـاً، شـربت منه الشـيء القليل، وتحادثنا في أمور الكلية والدكاترة، وفي أموري، أين أســكن، وأين يعثرون علي، ثم أخبرني أنه يجوز أن يأتي أبو إبراهيم ويزورنا، طنشت في البداية، أمّا هو فقد أعاد علي ما قاله، سألته، ومن هـذا أبو إبراهيم؟ أجـابني، إنـه مســؤولـه التنظيمي، قلـت: وهـل نحن في تنظيم، قـال: البدايات.

كنت مطرقاً، أحاول أن أحدد أين تضــع يدها، من؟ المرأة التي صــورة زوجها معلقة... وقد أخبرني شـيئاً عن زوجها، بأنه متطوع في سـرايا الصـراع، ودخلوا إلى لبنان،

وفوراً كنت أجيب: لوقف نزيف الدّم اللبناني، نظر إليَّ ببلاهة، كيف عرفت؟ ولأنني كنت أعرفه جيداً، وبأنه عضو عامل في حزب البعث العربي الاشتراكي، التنظيم العسكري، فقد قلت له: من الحلقة الحزبية من الرائد ملحم.

انفجر ضاحكاً، وهو يؤكد لي، أنه يجوز للحزبي وغير الحزبي أن ينضم إلى تنظيمنا، وقاطعته، إلى مجموعتنا.

سكت وهو ينظر في وجهي، ثم التفت إلى المرأة، طالباً منها أن تغني، المرأة صمتت هي الأخرى، قلت لها: إذا كان الموضوع، موضوع الغناء يزعجك فلا تغني... وأشاحت برأسها أنْ لا... إنما هي ترتّب نفسها.

ما إن رتبت نفسها وجهزت روحها، حتى كان شيء ما يشتعل، يشتعل بالحنين والألفة والوداعة، كانت تغني من القلب، تضغط على الوتر الحسّاس فيشتعل في قلبي الحنين أنا الآخر، وأمضي بعيداً، فأتذكر إخوتي وأمي وأبي، أولئك الذين عشت معهم فترة من الزمن، أغادرهم لا أدري إلى أين، آخذ ورقة عليها أرقام وأختام وأذهب... لا أدري إلى أين، اللواء الثلاثون، الوحدة 697، أين تقع هذه، لا أدري، ينسلون من بين أصابعي، الواحد تلو الآخر، "قم وصّل أخاك إلى كراج الانطلاق". ويسير بجانبي أخي، نستقل سيارة، يحاول أن يدفع فأمنعه، إلى أن نصل الكراج، لا يوجد محلات، واليوم جمعة الساعة الثانية عشرة ليلاً، والناس يملؤون الكراج، ويجيء الباص محملاً بالعساكر، يمرّ على الكراج، لا أدري ماذا يفعل هنا؟ يقف الباص وينزل السائق، لقد امتلأ الباص عن آخره، تصعد العساكر على السطح، الليل بارد، رغم ذلك يذهبون، على السطح وداخل الباص.

تراهم فجأة يموجون، يختبئون، يفرفحون، يركضون في كل اتجاه "الشرطة العسكرية" إنهم لا يشبهون القط والفأر في التلفاز... ولا هرقل في السينما، إنهم الشرطة العسكرية بالبيريه الحمراء على الرأس، وكلمة الانضباط على ساعده، وهو يمسك بالعسكري، ويأخذه إلى أمام الضابط، الذي يشير لهم أن اصلبوه، فيعبأ بالسيارة، ليجد أكواماً من العسكر يجلسون صامتين، خائفين، اقتلعت قلوبهم من مكانها ووضعت تحت بسطار الضابط، وعندما امتلأت السيارة إلى حدّ الإشباع، وجه الضابط

أمره إلى المجندين الذين كانوا يمسكون العساكر، أن اصعدوا، فصعدوا وهم يملؤون قلوبهم بالفرح نعم يا سيدي أنا كنت واحداً من الذين أمسكوهم.

وتصرخ نعيمة بالأوف، وينحدر من قلبي عشق للحياة والطبيعة، أجد نفسي في غابة صنوبر، على مرتفع من الأرض، أنزل بهدوء، وأتابع نزولي، فأصل إلى السهل، أجد ماءً، عبارة عن نهر صغير، أخلع الحذاء من قدمي لأبرد رجليّ وأغسل وجهي ويدي، أشرب ماء عذباً فراتاً وأشرب ولا أرتوي، اسمع صوت الحمام وهو يهدل، أمدّ نفسي على طولها، وأغمض عيني، وأستسلم إلى نوم طويل، بعد أن أكون قد وضعت الحذاء تحت رأسي.

وتنده بالأوف، مرة أخرى، يمتد صوتها في السكون، فيملؤه على آخره، ويعبرنا جميعاً إلى لبنان، ليشد المقاتل الذي يرتدي ثياباً مبرقعة، لنأتي به إلى هنا، يجالسنا فلا نراه، لا يراه سواها، يجلسان على ما يسمّى مائدة، يضع يده على كتفها فترتعش الآه في حلقها ثم يقترب منها أكثر ويمرغ وجهه على رقبتها، وهي من شدّة لذتها تتشنج بطنها ويسرع قلبها في دقاته، تنشدّ عروق رقبتها وتحمر خدودها، يا إلهي أنا لم أجد امرأة تغني بهذا الشكل، صوت قوي، وتؤدي بحرية، لا شيء يضبط إيقاعها، سوى نفسها، لقد أجبرونا تلك الليلة على المبيت في النظارة وأي مبيت هذا؟

لقد وصلنا إلى مبنى الشرطة العسكرية، ترجل الضابط عند المدخل وذهب، سلمنا إلى مساعد وجاء الرقيب أول، أنا كنت أرتدي ثياباً مدنية، بينما الآخرون لا يملكون إجازات، أو بعضهم لا يملكون إجازات مبيت، أوّل الأعمال بدأت من عند الرقيب أوّل، قال له المساعد "خذهم إلى ساحة التعذيب" فصاح الرقيب أوّل، وراء در... أحد... أثنين... أحد... اثنين. وسرنا إلى الساحة، حيث وقوف قف.

لقد تعبنا وأشرفنا على النهاية، حتى إنني عدة مرات كدت أن أقف عدّة مرات، قلت في نفسي، فلتمطر بطيخاً، ماذا سيعمل معي؟ لكني كنت أصبّر نفسي وأجاهد وهذه المرّة فقط ومتى يستحي هذا الكلب، ويكرّر تمارين الضغط والبطة والتمرين التاسع فوق الحصى، إلى أن انتهى، فقال: وقوف قف، فوقفنا جميعاً.

أخذنا إلى النظارة، كان مقرّ الشرطة العسكرية واسعاً وكبيراً، ولم يكن به إلا قليل من العساكر والضباط وصف الضباط، وصلنا إلى باب النظارة، ففاحت رائحة اللحم البشري، فتح الرقيب أوّل الباب وأمسك نطاقه باليد اليسرى، شيء ما كان مضغوطاً ثم انفزر، دملة كان فيها صديد وعندما استوت وبضغطة صغيرة خرج القيح منها، لكن سرعان ما نقل ضابط الصف النطاق إلى اليد اليمنى وراح يرجع الصديد إلى الداخل، وهكذا تراجعت الخلق إلى الداخل قليلاً، فدفش اثنين منّا، وساطهما بالنطاق، عبّأ اثنين آخرين، كنت أنا واحداً منهما، ويظهر أنه شاطني، لأنني بدأت أحسّ أن ظهري يلتهب، ضابط الصف لم يعد يستطيع دفع الموقوفين أكثر، فوضع بسطاره في ظهر آخر واحد منا وبدأ يدفش، وبرجله وقدمه وركبته، استطاع أخيراً أن يغلق الباب، بقيت هكذا حتى قرّر المنادي على النهار أن يزيح سواد الليل، ويخرج النور، يملأ به العالم، إلا نظارتنا، هنا توجد حجرتان في الزاوية وأمامهما صنبور مياه، من أراد أن يخرج الغائط من أمعائه، فيذهب على مرأى من الجميع، ويخلع بنطاله وأشياءه الداخلية ويتغوط، كنا نسمع صيحات الفزع تخرج بأنغام مختلفة والروائح تنبعث، وأنا محصور بين ثلاثة لا يمكنني أن أنام إلا واقفاً، وتنفرج لي الزاوية لأرى هذا المشهد.

بدأت نعيمة تتراخي ثم يخمد صوتها، قلنا لها: يعطيك العافية، بينما كنت في حالة من الخفقان التي تهز كياني.

وجدت نفسي في صباح اليوم التالي في قعدتي، فقد كنّا نجلس على الأرض على طرّاحات رقيقة، انشال كل شيء من أمامي، ولم يبق سوى بطانية صغيرة كنت مغطى بها، كانت الغرفة خالية من البشر، أين ذهب وجه الخير، طفت بعيني مرّة ثانية وثالثة، ولمّا لم أجد سوى الصورة تفاءلت خيراً، كوّرت البطانية على بطني ونمت قليلاً... استيقظت بعد عشر دقائق لأجد فنجان القهوة أمامي، كانت طازجة، فأشعلت سيكارة وبدأت أرشف من القهوة، رشفة، رشفة، وأفكر في أمر هذا الوجود والكون، وكيف وصلت إلى هنا؟

جاءت نعيمة وجلست أمامي، قالت: إن كان يلزمني شيء، قلت في نفسي: هذا أسلوبهن، به يبدأن، وإن وجدن الرجل قد وقع، فإنهن يتدللن عليه، أنا لم أعرف أية

امرأة بعد، ســوى منيرة، ولا أدري إن كنت أعرفها جيداً، فقد حصــل بيننا ذلك اللقاء المدهش خلف الباب، قلت بصــوت مرتفع: لا. عند ذلك ســألتني عن أوضــاعي، وعن أسرتي، قلت لها: إنني أخدم الخدمة الإلزامية، ضحكت وسألتني كم بقي حتى أتسرح؟ أجبتها، عند ذلك ســألتني إن كنت أشــرب الشــاي الآن أم على الفطور؟ قلت على الفطور، ومع أنني لا أتناول فطوراً، إلا أنني شكرتها وهي تحمل الصينية المليئة بصحون صغيرة من المسبحة واللبنة والفول وقطع البندورة والمخللات وثلاثة أقراص فلافل من البارحة.

أخبرتني أن الذي في الصــورة، هو زوجها، فأجبتها إنني أعرف، وقالت إنه أخو وضــاح وذهب إلى لبنان، فقلت لها: ليوقف نزيف الدم اللبناني، قالت كيف عرفت؟ أخبرتها بأنني أعرف، ثم التفتت إلي وسألتني: هل أحببت، أو هل أحبّ واحدة ما؟ سألتها أين وضــاح؟ قالت: إنه مناوب، ولم تجب على ســؤالي. قلت لها إنها تملك أجمل حنجرة ربما هي مصنوعة من الذهب الخالص، قالت: لم تجبني.

قلت: يا ولد إذا كان لا بد من الموت، فأهلاً به، ثم شــرحت لها عن طبقات الصوت وهي تملك طبقات ما أنزل الله بها من سلطان.

- أنت لم تجب على سؤالي.

- يا أخت، أنا لا أعرف ما هو الحب، لم أحب يوماً امرأة.

- معقول... أنا أوّل امرأة تجالسها.

- صدقيني، أنت أوّل امرأة.

كنت أكذب عليها، فلم أخبرها بقصة منيرة، فأنا لا أعرف إن كنت أحبها أم لا!

نظرت إليّ ثم حدّقت، وصمتت قليلاً، ثم باغتتني... قائلة:

أنا سأشرد.

قلت لها: اشردي ومن يمسك بك؟

لا أعرف إلى أين اتجه.

بلاد الله واسعة، والبيت الضيق يتسع ألف صديق.

سأذهب معك.

إلى هنا والأمور تجري إلى مستقرّ لها وميسّرة. ولكن أن تصل الأمور إلى أن "تشرد" ومعي. وإلى أين، إلى بيت أبي حسان الأعمى، وأكون مسؤولاً عنها، وننجب صبيانا وبنات ونعيش في ثبات ونبات، هذا لا يمكن أن يكون أبداً.

ولكن الموضوع بحاجة إلى مناقشة، إن وضاح علمني الحوار، وأن أقبل الرأي الآخر.

أنا لا أعرف... دبرني.

لماذا تريدين الهروب؟

لأن الذي عندي، وأشارت إلى الصورة، حمار ينقصه ذيل، كأنما كان يفلح وأحضرته من الحقل إلى الشام، ثم إلى لبنان، صمتّ ولم أقل لها: ليوقف نزيف الدم اللبناني.

أنظر حولك، افتح الباب وانظر، هل هذه الشام؟ طبعاً لا، إنه في اليوم الذي يكون فيه هنا، يأخذني ويمشيني في هذه الحقول، ماذا اختلف الوضع علي، هنا أراضي زراعية وهناك في القرية أراضي زراعية، وهذا البيت الذي نسكنه كأنه بيت في القرية، يا أخي على الأقل في القرية كان يعمل في الفلاحة والزراعة والقطاف، انظر لقد ترك عجوزين في القرية يعملان في الأرض، وكرّ إلى الشام، ماذا يرى من الشام، في النهار في المعسكر، وفي الليل هنا في هذه الزريبة التي يسمونها بيتاً... وأضف إلى ذلك أن كل مؤونتنا من القرية، يا دوب الراتب يكفيه! أنا كفرت بالله، يا رجل (تقصدني أنا) يا رجل، إننا لم نتذوق اللحم منذ وصلنا إلى الشام، أقول له طهقت، زهقت، أنا وحدي هنا بين أربعة جدران، فيقول لي: نذهب إلى بيت أبي عدنان، أو إلى بيت أبي مالك، وأين هما، إنهما في الريف الزراعي، واحد شرقنا والآخر غربنا، يعني سندقّ ساعتين مشياً لنشرب كأس متة، أو نأكل صحن تبولة، يا أخي أنا هنا أصنع التبولة والسلطة والحمص والفلافل وتعلمت أن أشرب العرق وأغني في انتظار حضوره، ربك حميد أنه جلب أخاً، وأسكنه عنده، كي يسليني قال... إيه مرحباً تسلية، جاء الآخر ليهدّ أعصابي

كنت بواحد صـــرت باثنين، الأخ الثاني كل يومين ثلاثة، يجلب معه واحداً أو اثنين، لا تؤاخذني بهذه الكلمة، وحضـري يا نعيمة العشـاء، واجلبي العرقات ، وأحضـر لهم كل شـيء وفي النهـايـة غني يـا نعيمـة، وينـامون هنـا، إيـه اتفو عليهم واحـداً تلو الآخر، لا تؤاخذني ولو كبرت كلام. كنت صامتاً أستمع إلى ما تقوله نعيمة، عندما ختمت كلامها بـــ "والله لأخطف وأروح على محل لا يعرفوني فيه" قلت: كيف تخطفين؟، أنتِ تهربين. قالت: سمّها ما شئت، وخلي هؤلاء المبرقعين يبحثون عني.

: صحة يا روح، أين أنت شارد؟

قلت لهم، حقاً أنا شردت، ورحت أدور في المكان، قلت أقوم وأغسل الكاسات، فهد أقســم علي أغلظ الإيمان، ونهض، وبقفزة واحدة، كانت الكاســات بيديه، راح يغسلها، عند صنبور المياه.

أنت شردت كثيراً.

لا تهتموا، الأمر لا يفرح كثيراً، إن هي إلا محطات، وهـذه التي قمنـا بهـا أهم محطة، ها قد انتهت، وخيرها بغيرها، يعلَم الله أين ستكون المحطة التالية.

جاء فهد كان يترنّم بأغنية، تقول الأغنية: "ها لأســمر اللون، يا لأســمر يا بو كمر فضة عليش هالبغضة " صف الكاسات ووضع إلى الثلث عرقاً، أمسكت بالماء أريد أن أمزجها، فحلف عليّ ثم أخذ زجاجة الماء، صب الماء. ولما لم يكن عندنا ثلج فقد راح يملأ الكؤوس، نشــف يديه، وأخرج دخاناً أجنبياً، وزع ورق اللفّ على يده، ثم لصــقه بلســانه، وشــق ســيجارتين، ووضــع الفلتر على طرف بجانب الدخان، ثم كســر قطع الحشـيش، ودرجه، أشـعل السـيكارة التي قام بحشـوها ونسـم علينا الهواء، راح يدورها والزاهدون يشرقون ويسعلون، وكان فهد يضرب الظهور لدى كل سعلة من أحدنا.

أنا لا أشتري إلا الصنف الجيد، لو تذهب إلى كل لبنان، تذكرت قول الرفيق، وتبحث عن مثل هذا، لن تجد أو أنهم لن يعطوك، هذا من عند أبي سمير، بياع البطيخ

الأحمر، تجده درويشـــاً يجالس امرأته في الزيتونة ويبيع البطيخ، إنه يعرفنا بأبو فلان، وأبو علان، نأتي إليه، بكام البطيخ اليوم يا عم أبو ســـمرة، زن لنا هذه البطيخة، يقول لامرأته أعطه ربع وزنة. أعطه نصـف وزنة، أعطه وزنة كاملة، اجلبي له كيسـاً، اجلبي له نصـف كيس، وتجلب الرفيقة كيســاً، أو نصــف كيس، تخبّئه بالمنشــفة، نراقبها حين عودتها، تمسك عصا صغيرة، عود، ومنشفة، تأتي وهي تعتذر، وتهزّه، كأن كل شيء فيها يهتز، يشتعل كل شيء فيّ، تهزّ ردفيها كأنما لتقول كل شيء دفعة واحدة، تأتي وقد سوّت شـعرها ووضـعت قليلاً من الروج على شـفتيها، ويهتز كامل جسـدها، ثوبها البني الغامق مرصـوص، كأنما هو بسـطيق يمشي. أما عندما يكون الموضـوع بيروتياً، يعني نصـف أو ربع وزنة، فإنها تمدّيدها إلى صـــدرها، وتخرج الحشـــيش المطلوب، الوزنة في منتصـــف الصـــدر، والنصـف على الطرف الأيمن، والربع على الطرف الأيســر، فعلى أي جانبيك تميـل، ويشـــرق حتى تمتلئ رئتـاه بـالـدخـان، ثم يزفره، فيخرج دفعـة واحـدة، ينـاول السيكارة للجالس على يمينه، فيصنع الشيء ذاته، وهكذا إلى أن يحترق الفلتر.

كان يا ما كان نحكي إلا ننام أم نصلي على بدر التمام، نحكي...

كان هنـاك ملك، والملك لـه بنـت، وفي الطـرف الآخر، كان هنـاك أمير وســـيم وجميل، أخته تعشـقه... وفي يوم من الأيام خطف الجني الأميرة، وأدخلها صفحات ألف ليلـة وليلـة، بكـت الأميرة كما لم تبكِ من قبل، لكن أحـداً لم يســـمعها، وحين أدركت شـــهرزاد أن الـوقت تأخر على الملك شـــهريار، وأخذ يتثاءب، أغلقت الكتاب، وقالت قم بنـا يـا ملك الزمـان، فقـام الملك وجعل يمشـــي متكئاً على كتف شـــهرزاد، وأخـذتـه إلى الســـرير، وأطفأت الأنوار عليه، وبعد لحظات أو دونها كان يُتَربش مع خراف الملائكة، بينما تركته شـهرزاد، وانصـرفت لتأخذ ابنها من عند أختها وترضـعه، لأن الـولد لم يكن يرضـــع إلا من صـــدر أمه، ولم يكن هناك حليب "نيدو" ولا من يحزنون، أما ما كان من أمر الفتاة التي كانت تبيع الحشــيش فإنها لما رأت الإقبال على صـــدرها، قررت أن تتزين وتشـكل صـدرها بـالورد لتقدم الحشــيش مع الرائحة الطيبة، خاصــة إنّ مجموعة من الكفاح المســلح قد عرفت الطريق إلى صـــدرها، ومجموعة أخرى من طرف أبي كفاح،

وأخرى من طرف أبي نضـــال، وأخرى من مجموعة الثورة مرّت من هنا. ها هي تباشـــير العزّ تفوح على أبي سمير وزوجته، وأقسما إن رزقا بصبي سيسميانه سميراً.

كانت الدورية المؤللة تأتي وتشحط الفرامل، فينتشر المقاتلون الأشاوس، كل يأخذ زاوية، في البداية كانت الناس تخاف منهم، فيهرعون إلى الاختباء، ولكن مع الأيام، صـــار لكل واحد حكاية، كانوا ينطقون بالبؤس والغربة، كان الواحد منهم يقف خلف سلاحه ويشهره، وخلف السلاح كومة من القسوة والرعب والاندهاش والانفلات الأمني، هكذا يمرّون، ثم ينتشرون، وينزل أبو الليل، يمشي مشية عسكرية واثقة، يتقدم إلى أبي سمير، يشير إليه بإصبعه، فيمضي إلى أم سمير يؤدي لها التحية العسكرية، سلام خذ، وترفرف الراية فوق اليد المتخشبة، يقدم لها الصف، يأخذ الكمية المعلومة لـــه، ويغادر بسلام. عند المغادرة تشفط السيارات، فيتعربش كل مناضل على طرف السيارة وتنطلق بهم مصدرة صوتاً أشبه برشاش الـ 500.

ثم إن أم سمير تكحلت وتجملت وسوت شعرها، فاليوم سوف يزورها فهد، العريف في الجيش السوري، والذي تخاف منه السباع في البرية، ولكن ليس عندنا برية يا حسرتي لنرى السباع وهي تهرب منه شاكية مهرولة.

دخل العريف فهد إلى البيت فانشـــرح صـــدره، جزء منه يطل على البحر فتسمع هديره على الشاطئ يثير الألباب، لكن هذا لم يشد انتباه فهد، ما شد انتباهه فعلاً أنه كان يرى صدر أم سمير وزنديها العاريين، كانت ترتدي ثوباً قمري اللون، أو ما يشبه الثوب، لـــه فتحة عند الصدر، تشبه قصعة مليئة بالأرز المطبوخ مع اللحم، أضف إلى ذلك إنك ترى الزندين كأنهما فواكه بعد الطعام، أما من الأسفل فحدث ولا حرج.

معروف أن العريف فهد يشـــتري كيســـاً في كل مرّة يزورهم، وعن هذه الزيارة، قال لها إنه يريد الذهاب إلى دمشق، يريد كيساً لأصحابه، وعليها أن تعتني به. قالت لـه تزورنا في البيت الساعة التاسعة، تأخذ الكيس وتسهر قليلاً، فأجاب بحاضر وانطلق. وها هو الآن يدخل البيت كفاتح يقف أمام الملك وقد حقق انتصاراً يريد مكافأته.

غنجت أم سمير قليلاً، فاستقبلها فهد بالبيرة اللذيذة، فتح واحدة ودلق قليلاً منها في حلقه، حاول أن يقرصها فنفرت قائلة: أبو سمير هنا، وفعلاً كان أبو سيمر هنا يدخل البطيخ الأحمر إلى داخل الدار، أو ما بقي منه. كانت أم سمير قد رتبت كل شيء ووضعت صحناً من المارتديلا وآخر من اللبنة وآخر للجبنة، وهذا للفستق الحلبي، وهذا للبسطرمة وعلب البيرة ثم فتحت الخزانة وجلبت زجاجة وسكي مختومة.

انظري إليه كيلا يكون مضروباً.

ولو، أنت في بيت أم سمير.

عاينها وهي ترتب الأشياء أمامه على الطاولة، كان الثوب يغطي الجسد البرونزي ألقاً وبريقاً، خاصة وأن جسمها ممتلئ، فاستغاث بالقرود السود كي تنقذه من هذا اليوم... وهي استدارت عليه وراحت تسأله.

هل لك ولد؟

لست بمتزوج

إلى الآن يا مضروب؟

وإلى الأبد.

ضحكت وقالت: يعني بكر... هل مارست مع امرأة؟

فجاوبها: حتى الآن لا..

وكان يكذب، وهذه عادة تعود عليها، كلما مارس الجنس مع امرأة يقول لها إنها أوّل امرأة في حياته. وإنه لم يكلم امرأة بسر من أسرار الحبّ، وإنها أجمل امرأة على الإطلاق، وإن لها وجهاً سبحان من صوّر، ويظلّ يمدح بها حتى تخلع سروالها.

هنا دخل زوجها أبو سمير، الذي أدخل البطيخ الأحمر إلى أرض الديار، وغسل وجهه ويديه ورجليه ونشفها ثم صلّى صلاة العشاء وجلس للشرب، إنه يفرق بين هذا وهذا، يقول لك هذا لله وهذا لنا، ساعة لربك وساعة لبسطك، ثم يصبّ ثلاث كؤوس بيرة، ويمسك كأسه ويصيح بصحتكم، وعادة ما تأخذ أم سمير الكأس، وتقول

بصحة أبو عذاب، فهد، وينقر العريف فهد والذي صار اسمه أبو عذاب، الكأس، ويشرب، وخلال أربع دفعات يكون الكأس قد فرغ. وتقوم صاحبة البيت وتأتي بكؤوس ثلاث، ثم تأخذ الكؤوس القديمة، تغسلها وتضعها جانباً، وإذ ذاك تملأ كأسين من الويسكي لها ولأبي عذاب، بينما تضع عرقاً لأبي سمير، تجلس بجانب أبو عذاب وتنادمه، وأبو عذاب يدير رأس الجميع بكلامه، وتبدي أم سمير لهفة بحديثه، بينما لا يبدو على أبي سمير ذلك، إنّه جالس بجانب الجميع يلفّ سيكارة ويقدمها إلى أبي عذاب ليشعلها.

قام أبو سمير ليشعل النار، فهم يريدون أن يأكلوا، وعصافير بطن أبي عذاب تزقزق، قال لهم استريحوا أنتم وأنا سأشوي اللحم، وأخرج كمية من اللحم، ومعها قليل من البصل والبندورة واتجه إلى أرض الديار، شكها بالأسياخ ودفعها إلى النار التي راحت تملأ المكان برائحتها. هنا أدرك شهرزاد الصباح وأرادت أن توقظ الملك النائم شهريار، إلا أنها قرّرت أن تنام إلى جانب ابنها، وخاصة وأنهم قد جلبوا له حليباً بقرياً ممتازاً، فقد تبيّن أن الأم لا يوجد في صدرها حليب.

****

استيقظت شهرزاد في اليوم التالي على هدير حلم، فقد حلمت أنها في بستان تغني أعذب الألحان، وهذا البستان محروس من قبل ملك الجان الأحمر. وضع عند كل زاوية جني يجوب أطرافه، ثم حصل في السماء غيم كثير وعندما انقشع رأت فيه الملك قادماً، وهو يصرخ عليها، اغتسل بسرعة وخرج أميراً ليس يشبهه أحد، فطلب الكأس والويسكي الأسود المعتق وراح يشرب، وكان عليها أن تهيّأ نفسها وتجهز جسدها له، عند ذاك وبسبب دخوله غرفة النوم ليجدها وقد خلعت ما عليها ولبست غلالة رقيقة، اندفع فيها فامتلأت، والجن لا يفعلون الجنس مثلنا نحن البشر، إنهم يدخلون على شكل دخان من الفرج يجلسون في الفتحة ثم يمخرون عباب الجسد ويتوزعونه فتشعر المرأة بالجني في كل جسدها، من أخمص قدميها إلى مفرق شعرها من الداخل

طبعاً، يتغلغل في الدم فتصبح العروق وكأنها أنابيب مياه، والأعصاب تشدّ، والصراخ يهزّ الدينا هزّاً، يظل يلجها ويوسعها إلى أن تصبح بحجم الكرة الأرضية، فينفخ فيها النفخة الأخيرة لتغرد وتصيح من فرحها، ثم يتهاوى على كل شيء فيها، ومثل البالونة، تكون منفوخة ثم تبدأ بالتراخي، حتى تصبح "كمشة" يمسك بها الجني الذي يكون قد خرج من فمها، ويلقيها فوق كومة السرير فلا تصحو، تظل مغمضة العينين، إلى أن يقبلها برفق. هنا كانت شهرزاد قد صحت من نومها على هذا الحلم الذي أسمته حلم البستان.

أمّا ما كان من أمر أمّ سمير وأبي عذاب، فإن أم سمير لمّا اطمأنت إلى أن زوجها يقوم بعملية الشواء وضم الأسياخ مع البصل والبندورة والفليفلة الخضراء، راحت تتغنج وتتدلع على أبي عذاب الذي يدور وجن جنونه من دلعها. فتقول له: اشرب يا بعد روحي، فيشرب، ويدخن سجائر الحشيش، وتقول لـه: يا ليتك تقبرني، ويقول لها: إن شاء الله أنا قبلك، ولم يزالا على هذه الحال مدّة من الزمن كان قد وصل فيها إلى الشيطان الرجيم، وأخرج الموضوع، بينما هي نظرت إليه صامتة بلهاء، ثم مدّت يدها لتقبله من فمه، وتركها أبو عذاب تفعل الذي تريده فالأرض ليست أرضه، وأهل البيت أعلم بما فيه.

استوى أبو عذاب كلّه، ما عدا شيئاً واحداً فيه، وغنى منتصب القامة أمشي، غناها بشكل خفيف حتى لا يسمع صوته ذلك الذي يشوي اللحم، وفجأة أناخها فمدت يدها تخلع شيئاً، وأعطته أليتها فدقها واحداً، كانت تسمع آهاتها عند أبي سمير الذي صرخ هل هناك شيء، لم تجب أم سمير، جاوبه أبو عذاب، بأن لا شيء يدعو للشك، السيكارة وقد وقعت على الأرض، وحملها، وها هو يشرب منها.

عندما انتهى أبو عذاب، شدّ السحاب على البنطال وجلس وكأن الأمر لم يحدث على الإطلاق وهي لبست الشيء الذي اقتلعته بيدها، والذي ما تزال تمسك به، رفعته إلى الأعلى، فظهر لها ساقان كالهيطلية من الخلف، كما رأى شيئاً من بطنها المتهدلة ككرشة الغنمة، قرف قرفة لا بأس بها خلصته ممّا هو فيه، وأعلن وصول أبي سمير وبيده صينية اللحم المشوي، والبندورة والبصل والفليفلة.

هنا قامت أم سمير لتعد المائدة، قامت متوجعة، وقد عللت ذلك بأنها أخذت برداً ليلة البارحة، أبو عذاب، قال لها: بأن تضع رداء فوق جسدها لأن البرد لا يرحم، خاصة في آخر الليل، ولا ننسى أن الهواء هنا يجري، يعني دافئ نهاراً، بارد ليلاً، وقد ضحك حكيم زمانه، فهو لا يعرف من أين أتته الحكمة.

ظلوا على هذه الحالة إلى ساعة متأخرة، خرج أبو عذاب وكيس الحشيش في عبّه، ورأسه كان أكبر من القلعة، غداً سيسافر إلى الشام فماذا يأخذ معه، يأخذ الكيس ويأخذ فاتنته الشقراء، ستصير أعجوبة لكل من يراها، سيقول إنه سيوصلها إلى دمشق، لأنها تبحث عن أخيها الذي هرب وتركها فريسة للوحوش تنهش من لحمها، وهي حين تعرفت على العريف في الجيش فهد، وعرفت أنه مقيم في دمشق قررت أن تسافر معه، وتبحث عن أخيها لأنهم قالوا لها إنهم رأوه في الشام، أكثر من واحد رآه، رأوه وهو يدخل السينما، سينما الفردوس، رأوه في حديقة، نسيت اسمها، تقول لها حديقة السبكي، فتقول، هذه هي، ولو قلت لها اسماً آخر، لقالت هذه هي، وكلّ في ذلك يسبحون.

****

أنا أشرد كثيراً هذه الأيام وخاصة عندما أتذكر نعيمة ووضاح، يومها وبعد أن أفطرت عندها قالت ما رأيك أن تغتسل، فصمت، لأنني لم أغتسل منذ أسبوعين، قالت ذلك وقفزت إلى البابور ضربته وأشعلته، بينما راحت تملأ البرميل ماء. أنا كنت جالساً لم أتحرك من مكاني، كانت تهرتم آتية ذاهبة، تقول كلاماً لم أفهم منه شيئاً. جاءت وقالت قم أصبح الماء جاهزاً، قلت وأين سيكون الحمام، قالت هنا، وأشارت إلى العتبة، قلت لا بأس، قالت ساعدني في حمل البرميل، فساعدتها وحملنا البرميل سوية إلى عتبة البيت، ثم وضعت الصابونة والليفة والطاسة، وخرجت، وأنا أغلقت الباب وبدأت أغتسل.

اندق الباب، قالت: أليف لك ظهرك، فصمتّ، وهنا فتحت الباب وإذا بها شجرة حور تلقي أوراقها فوق نبع ماء، هكذا تخيلتها ووجهي يموج برغوة الصابون، كنت أعرف أن شبقاً دبقاً قد أصابها فراحت تقول كلاماً فاحشاً، أمسكت بالليفة والصابونة، وراحت تليّف ظهري، ألقت فوقه الماء الساخن وراحت تدعكه، وأنا كنت قليل التجربة حتى هذه اللحظة، فما كان مني إلا أن أمسكت بيدها ووقفت، قالت ماذا تفعل، فوضعت فمي على فمها ورحت أعانقها، ثم فككت لها الأزرار وأمسكت بثوبها من الوسط، لم تقل شيئاً ولم تمتنع، وخلعت الثوب. فإذا هي عارية، تقول ها أنذا لك، جسم مشدود لا غبار عليه وثديان ينفران منه يشبهان... لا يشبهان شيئاً، يقفان كحرس لهذا الجسد، ألقيت الثوب على طول يدي، ثم اغتسلت بطاسة ماء، ثم أخرجتها إلى اليابسة، رحت أدعكها إلى أن استوت، وكنت أشتعل بجانبها إلى أن قُيض لي حبل فأمسكت به، كنت في بئر في الصحراء، وقعت يا عباد الله في البئر، بقيت ساعات أفكر ما العمل؟ إلى أن ألقى أحدهم لي بحبل، ربما رجل يريد الماء، ربما نزل من السماء، ربما أهدته الطبيعة لي، تدلّى فجأة فأمسكت به كما تمسك أم بابنها، ورحت أصعد وقليلاً قليلاً، كنت أمسك بحواف البئر، كان الحبل مربوطاً بحديدة عند الفتحة، أسرعت إلى هنا، دهشتي لم تتم، وهنا علا صوتها، فقلت لها تشجعي، قالت ليس هكذا، وقبلتني، فصرت تحتها، وراحت تفرك نفسها وتضربني، وتصرخ وحمدت الله ألا أحد موجود، وإلا لقصّ أعصابي المتشنجة كلها، ظلّت تفرك وتصرخ، ثم بدأت البكاء، تبكي على جسد لم يجد له من يعينه على هذه الحياة، تبكي عمراً ضائعاً لم تستفد منه، وحينذاك، حينذاك، أطلقت صيحتها الطويلة، ثم تراخت ميتة على جسدي، وأنا كنت قد سكبت مائي فامتزجنا ببعضنا، قتيلا الهوى، ماذا أصابهما، انتظرنا لحظات طويلة أم قصيرة، لا ندري... إلى أن أفقنا.

قبلتني قبلة قصيرة، وفعلت أنا ذلك، أنت مدهش! هذا ما باحت به بعد الإغفاءة القصيرة أو الطويلة، قلت لها، بل أنت الرائعة. ثم نهضت تغتسل، وأنا أشعلت سيكارة ورحت أدخنها بشره عجيب، في البداية أدارت ظهرها وأمسكت بطاسة الماء، قذفت بالماء إلى فرجها ثم جلست على كرسي واطئ، وراحت تصب الماء على

شعرها وتغسله بالصابون فينزل مع الشعر إلى الثديين إلى الصرة ثم يضيع عند التقاء الفخذين، هل هناك أجمل من هذه الصــورة، امرأة تغتســل وصــوتها يحزّ في القلب، مشغول بتفكيك العاطفة، إلى حزن وفرح.

نادتني وطلبت مني أن أغتســل مرّة ثانية، أجبتها حتى تنتهي الســيكارة، ورحت أستمتع بما بقي من سيكارتي على هذه النشوة المتدفقة أمامي، وقَفَتْ وأَسْبَلَت الماء ثم أمســكت بالليفة تليف تحت إبطيها، ثم انتقلت بالليفة إلى اليد الثانية ثم ليفت تحت ثدييها، هذان اللذان كنت أعض حلمتيهما منذ قليل، ثم ليفته، ما أروع ذلك، ها هي تدير الليفة نحو عجيزتها فتدخلها بين الثنيتين وهي تغني الغناء البلدي، ترســله ندّياً رخوّاً، كأنما هو خارج من قرارة الجب، ليندلح ويملأ العالم.

نادتني مرّة ثانية، فقمت، تعال لأغســلك، فجئت وجلســت على الكرســي الواطئ، أمسكت برأسي وراحت تشتغل به، صوبنته، وشلفت الماء وراءه، ثم فعلتها مرّة ثانية وثالثة، أخذت الليفة وليفت كل جسدي، وكانت تغني، طلبت مني أن أصبّ الماء، لأنها تنبسط إن فعلت ذلك أمامها. فأمسكت بالطاسة ودلقت الماء على جسدي مرّة واثنتين وثلاثاً، أنا ما بي اليوم، لا أتذكر إلا المشــاهد الجســدية، هل توقّف العالم عند هذه المشــاهد؛ ســاعدني يا إلهي كي أتخلص من هذه المشــاهد، فأنا لا أكاد أخلص من مشــهد حتى يظهر غيره، وأصــدقائي هؤلاء الثلاثة ما بالهم هنا يتكلمون كل واحد لنفســه، قال الممثل، إن هي إلا ذكريات، فرد عليه أبو عذاب، يعلم الله أين كان؟ وتكلم الثالث فقال شــطحات من عالم الغيب... قالت أنا، لماذا لا يأتي الجمعة قبل الاثنين، وانفجرنا بالضحك، ضحكت على الجملة التي تأتي بعدها، والتي تقول، لماذا لا يأتي فصل الصيف مكان الشتاء؟ ولماذا أنا فلان وأنت فلان، والثالث فلان الفلاني، تعالوا نتبادل الأسماء، فتبادلناها؟ وهكذا صرت بين ضحكة وأخرى، أبو عذاب حامل ثقل الأرض.

* * * * * * * *

ها هو الصــباح يشــرق ســعيداً هذا اليوم، لأنني رأيته من النافذة ينقر لي ويحدثني،

- استيقظ يا سعيد.

فاستيقظت، نظرت حولي، كنّا أربعة نيام، استيقظت قبلهم، أبو عذاب جاري الذي نام عندي، والفنان وأنور ا لذي لا يتكلم، بل يضحك إذا كان الأمر يستحق الضحك، وإلا فإنّه يصمت، وأنا يوسف فرحان، مازج الخمرة بالماء وهنا في الشام تعرفت على الأنثى: جارتي التي ضاعت ونعيمة التي أعبد، وواحدة التقيتها في سوق الحميدية والتي سبّبت لي مشكلة.

اسمع يا صديقي: أنا يوسف فرحان، انفرزت إلى الأمن أثناء الدورة العربية الخامسة، اختاروا الحزبيين الأعضاء العاملين، وكنت أنا واحداً منهم، نزلت إلى السرية، القريبة إلى بيتي، فسلموني مسدساً وركبت السيارة، انطلقت بنا إلى المدينة الجامعية، وقفنا على الباب، عند ضابط يرتدي الثياب المدنية ويضع نظارات "رايبان" على عينيه، كنا مجموعة لا بأس بها، انضممنا إلى مجموعة لا بأس بها أيضاً، وانتظرنا إلى أن بدأت الوفود تتوافد، هذا وفد الجزائر، فيقول لأحدنا أن يركب معهم ويسجل اسمه عنده، وهذا وفد الكويت تفضل واركب معهم، هذا وفد السعودية تعال يا فلان لحراستهم، ولم يبق إلاي، وماذا أنت فاعل يا يوسف؟ لا شيء، ها هو وفد اليمن الجنوبي، اصعد إليه، واحرسهم جيداً.

صعدت إلى الحافلة الصغيرة، ولم تعجبني كلمة الحافلة فاستخدمت عوضاً عنها الباص الصغير، الذي راح يشط بنا ويمط، كنت قد عرفتهم بنفسي وتعرفت إليهم، هم استفادوا من جيرتهم للسعودية، فأعطتهم الأحذية الرياضية القديمة ليلعبوا بها، كما أنهم استفادوا من المنحة التي قدمتها، لا أعرف الجهة التي تفضلت عليهم بمبلغ /500 / ليرة، فنزلوا في جدّة، واشتروا الكهربائيات وما يلوذ بها أيضاً، وصعدوا الطائرة دون أي مبالغ تذكر، المهم يا مرحوم البي، أصبحت مرافقاً لهم، وحارساً أميناً، وكنت آخذهم إلى الزبداني وإلى ميسلون وأماكن أخرى للنزهة، فنجلس أنا والمشرف الإداري، نشرب شيئاً فيتكومون على الطاولات ويأتي صاحب المقهى إن كان يستطيع أن يقدّم لهم مشروباً فأقول له: الذي معه دعه يشرب ويقول: والذي ما معه، أردّ عليه القول: لا تشربه، يقول: تفضل اطردهم، أقول له: اتفضل أنت أولاً، وتضيع الحكاية بيني وبينه،

فأنا أخدم الخدمة الإلزامية وراتبي على قدّي، أنا لا أستطيع أن أشربهم في كل مرّة، الوفد السعودي والكويتي وكل الوفود، كانت تعطي المرافقين الأمنيّن هدايا، ساعات قيمة مثلاً، إلا اليمن الديموقراطي، كانوا جوعى، عراة، حفاة، كنت أقول، كم هي اليمن الجنوبي فقيرة، إنها تعيش على مساعدات الاتحاد السوفيتي والمجموعة الاشتراكية.

كنت آخذ المشرف الإداري إلى سوق الحميدية، كان يتأمل ويتفرج، وكنا نقطع السوق مرات ومرات، لا أدري ما به، شاب مهذب خلوق أسمر، كلهم سمر، طوله 160 سم، نحيل، وسيم، كل الصفات الجيدة موجودة فيه، يقف أمام المحل ويلوب بعينيه على حمّالات الصدر والسراويل القطنية، عرفت ما الذي يوجعه، فرحت أدير وجهي إلى أن تكتمل المجموعة، فيدعوني للمبادرة، أحضر، وبكم يا عم، لأ، هذا كثير، إلى أن أشتري له.

مرّة لمحتها، كانت تطير في سوق الحميدية، تركته وأسرعت خلفها إلى أن بلغت الجامع الأموي، استدارت تفتش عن شيء، وكنت قد وصلت إليها، قلت لها: تفتشين عني، تصوّر المصادفات السعيدة أن تقول نعم. عدت أنا وإياها نمشي متمهلين، أحكي لها عن ذاتي وتحكي لي عن ذاتها، إلى أن وصلت إلى المحل الذي يقف عنده المشرف الإداري، غمزته، وتابعت الطريق إلى مدخل سوق الحميدية. كان علي أن أفكر في تحصيل بيت، ونظراً إلى أن رفاقي كلهم من العسكر، يعني ما زالوا في قطعهم العسكرية، فعلي أن أدبر ذهابها إلى بيتي، إلى دار أبي حسّان الأعمى.

تسللت أنا وهي إلى شارع السادات، ثم إلى منطقة حكر السرايا، ثم القنطرة، وصولاً إلى البيت، ثم انحرفت إلى اليمين، ودلفنا إلى البيت بحذر شديد، فتحت الباب، وبهدوء تيسّرنا إلى القبو، ولما لم يكن لدي كراسي، فقد أجلستها على السرير، لم يكن أحد من أهل الدار في المنزل، والنهار كان مشمساً والهدوء يملأ الكون، قالت لي إنها تعلّم الرياضة للإعدادي وأنا قلت لها إنني أخدم الإلزامية يعني تجنيد إجباري، دققت البابور أريد أن أصنع لها شاياً، فشكرتني، وهنا جاء أبو حسان الأعمى ينقر بعصاه. في البداية نقر على الباب وصرخ علي: يوسف، يا يوسف، وأنا من فرط هلعي صرخت مجيباً

نداءه، فتحت الباب، قال لي: ماذا تعمل عندك؟ قلت لــه: لقد انصرفنا اليوم مبكرين. ثم دلف الباب ونزل الدرجة الوحيدة، كان ينقر بعصــاه بشــكل دائري، ثم جلس على السرير، فأشرت إلى الفتاة أن تنهض وتأتي إلى فراش الإسفنج، الملقوح ليلاً ونهاراً في هذه الزاوية، فقفزت وجلســت في الزاوية، وهات يا حديث من أبي حســان وكله كلام فارغ في كلام فارغ، قال: إنك تصنع الشاي، قلت له على الرحب والسّعة، ولم يغادر إلا بعد أن شرب كأسين من الشاي، الساعة قاربت على الواحدة، وبعد قليل ستمتلئ الدار من كل من هبّ ولم يدبّ من العســكر النظامي وغير النظامي، وكيف ســأخرج الفتاة وأنا إلى الساعة لم أقضِ وطري منها، ذهب أبو حسان، ويعلم الله أنه أحسّ بأن الموضوع فيه شــيء، لأنه بعد قليل وما إن خلعت بنطالي وســروالي والفتاة أدارت وجهها إلى الطرف الآخر، حتى سمعت نقرات عصاه، وهو يصيح علي ويسألني إن كنت بحاجة إلى شيء، قلت من مثل ماذا، قال أي شيء، فإنه هنا جالس في البيت حتى يحين العصر. قلت لــه طيب إنني أريد أن أنام الآن، وكيلا يصدر صوت السرير، أجلستها على فراش الإسفنج، ورحت أقبلها وأشمشمها، وهي صامتة، أغلقت عينيها وأطبقت فمها، كأنما هي راهبة، أو شيء من هذا الشكل، في معبد بوذي.

عندما انتهيت منها، أعتقد أنها كانت تسمّى سعاداً، أو شيئاً من هذا القبيل، فتحت الباب بهدوء ومددت رأسي، لا أحد، أشرت إليها أن تسرع في ارتداء ما شلحت، فلم تسرع، واستمرت على الوتيرة ذاتها، وأنا صار قلبي يخبط وعرقي يشرشر، انتظرت قليلاً ثم كانت واقفة، فقبلتها واحدة على عجل، جاءتني رائحة البصــل المفروم قبل يوم أو ساعات، من شعرها، ورائحة جسدها، صعدت الدرجة وفتحت الباب وأشرت إليها أن تصعد فالدار خالية إلا من العناكب والسحالي، أمسكت بيدها وجررتها، وهكذا كنا أنا وهي عند الباب، وفتح الباب الثاني وإذ بمنيرة تفتح بابهم، ولهول الصدمة، لم تفعل شيئاً، قلت لها مرحباً... هذه أختي جلبت لي بعض الأشياء من هناك... من حلب، هي هنا تدرس في الجامعة في مدرسة القبالة والتمريض، سأوصلها وأعود، والآن... وداعاً.

ويظهر أن هول الصدمة زال، فصرت أسمعها تردد الشتائم والسباب، وإذا أردت أن أمارس الجنس مع أختي، أن آخذها إلى مكان آخر، يا شــرموط، يا ابن ســت

عشـرة شـرموطة، أعوذ بالله، إنها سـافلة وابنة كلب، هكذا قلت للفتاة التي معي، حين سـألتني لماذا تقوم هذه الفتاة بمثل هذه الأشـياء؟ قلت: ما علينا، وظل صـوت منيرة يرافقني إلى خارج الزقاق.

عندما صرفتها أحسست أن ثقلاً انزاح عن صدري، غدوت الآن أكثر حركة، نظرت إلى السـاعة، يا إلهي كان يجب أن أكون في الملعب، ملعب العباسـيين، وهرعت أبحث عن وسـيلة مواصلات، فلم أتمكن، كانت كل الطرق مقطوعة، والناس يمشـون على أقدامهم، جميلة هذه، وإلا على ماذا تمشـي الناس وطرقتها ماشـياً من باب توما إلى العباسيين هرولة، وما إن وصلت إلى الملعب حتى انتظمت في عداد المكلفين على حراسة الرئيس، أو هكذا كنت أظن، جمعنا الضـابط الذي يرتدي ثياباً مدنية، ونحن جميعاً نرتدي ثياباً مدنية، وألقى فينا بضـع كلمات، عن موقعنا وكيف يجب أن نجلس وكيف نسـتقبل الزبون، هكذا أسـماه، وواحد، اثنان، هيا انتشـروا... دخلت الملعب، كان مملوءاً، هناك سيلقي الرئيس كلمة، كانت الجماهير على الصفين من المخابرات، ونحن مكاننا عند اللوحات البشـرية، جلسـنا على يمين ويسـار اللوحات الخلفية، كنا نترك كرسياً واحداً فارغاً وآخر مليئاً، وعند الساعة الخامسة فتحت أبواب الملعب، فدخلت الجماهير لترى أن الملعب مملوء، فسعت جاهدة حتى تحصل على الكرسي الفارغ.

كان الابن آدم، هذا البشـري يمرّ بين اثنين من المقاتلين الشـجعان، فواحد يفتش جزأه الأيمن والآخر يفتش جزأه الأيسـر، ونجلسـه بسـلام وأمان بيننا، ولا ننسـى أن نراقبه مراقبة جيدة... إن شئنا السلامة.

في السـاعة الثامنة وسـبع دقائق ابتدأ العرض، فقد وقفنا لمدة دقيقة على أرواح الشهداء، جلسنا بعدها، ثم بدأت كلمة رئيس الجمهورية، فاستمعنا إليها بصمت ونحن نراقب الجزء الأيسـر للجالس على يسـارنا، دام الخطاب حوالي سـاعة، جرى فيه اسـتعراض شـامل للعلاقات الدولية والعربية والمحلية، وبعد نهاية الخطاب توجهنا مباشـرة إلى الملعب للعشـاء، هذا اليوم لم تكن فيه مرافقة، أو أنا تصـورت كذلك، فالوفد الجنوبي يأكل مباشـرة من دعوة الرئيس، وأنا أضـع يدي على مسـدسـي وأراقب

اللاعبين الذين يأكلون وهم يمرحون، انصرفنا الساعة الحادية عشرة، فسرت متمهلاً إلى الدار بعد أن أخذت الوفد إلى المدينة الجامعية.

* * * * * * * *

في صباح اليوم التالي، وكنت قد نسيت ما جرى من أحداث يوم أمس، أفقت متأخراً، أو قل إنني تكاسلت في استيقاظي، قرّرت أن أذهب إلى الحمام وفي اللحظة ذاتها التي وصلت فيها إلى صنبور الماء، شاهدتها، فتراجعت إلى الوراء، ولكنني حين لم يكن من الأمر بدّ، قرّرت أن أغامر، وغامرت، فتلقيت فردة حذاء، في وجهي تماماً، لكنني حدت عنها، وتلقيت أيضاً مجموعة شتائم لأبي ولأمي التي لم تعرف كيف تربيني، كنت قد جلست في الحمام/المرحاض، أحسب ألف حساب لخروجي، ذكرتني هذه الجلسة بالبولوني، السجن العسكري للفارين والمارقين وغير النظاميين والمدنيين والمذنبين وغير المذنبين، ولكل من هبّ ودبّ وأمسكته الشرطة العسكرية وقذفت به إلى سجن حمص، المحطة التي تقع في وسط سورية، والتي فيها يوزعون العساكر على السجون، عموماً سأقول لها إن هذا لا يجوز، وإن الفتاة هي أختي، سأخرج الآن، وأغسل يديّ، ثم أسير، خطوة، خطوتان، ويحترق الفتيل، ها هي فردة حذاء آخر وآخر، هل صرنا مستودعاً للأحذية، لم أتكلم، لم أقل شيئاً سوى أنني أسرعت قليلاً لأصل إلى البيت.

ارتديت ثيابي، كانت هناك، وقد كمنت لي، هل بقي لديها أحذية، سأمر الآن، وأمر، فأجد بصقة في وجهي، لماذا تفعلين ذلك يا منيرة؟

وتجيبني منيرة: الإنسان الوسخ لا يستأهل إلا البصق في الوجه.

ولكنني لم أفعل شيئاً.

أنت كلب واطي، تحب من يبصق في فرج أمك. تفو.

وأغلقت الباب أمامي. وكانت هذه آخر مرّة أراها فيها، إلى اليوم، زمن تسريحي من الجيش.

* * * * * * * *

قمت لأصنع الشاي، وضعت البابور عند مدخل الباب، هؤلاء القوم لا يريدون أن يستيقظوا، ها أنذا الآن نظيف ومرتّب بعناية، سأخرج اليوم إلى قطعة الجيش وأسلمهم الحاجيات التي استلمتها منذ سنتين ونصف وأربعين يوماً، فقد تركونا في خدمة الاحتياط أربعين يوماً لا غير، إذاً فنحن محظوظون، يومها وضعت الحاجيات في كيس البحار وأغلقته إلى هذا اليوم، لم يلزمني منه سوى الحذاءين والملعقة، بحثت عن الملعقة فلم أرها، يظهر أن أنور الذي سرّح البارحة أخذها وسلمها، سأعود بعد الظهر لأجد هذا السرير وما عليه والفراش في ذمة الممثل... بقيت الصحون والكاسات وإبريق الشاي والبابور، من سوف يأخذها؟ لا أدري... سوف أودّع أصدقائي الذين أحببتهم وأغادر، سأنتظر سيارة تقلّني إلى دمشق ولن أتلفت إلى الوراء، يوماً ما سأكتب عن الذين هنا، سأكتب قصصاً رائعة، ولن أنسى أبو الطاهر، صاحب القصص المضحكة الباكية، هل تعلمون بأنه أخذ رسالة إلى ضابط الأمن من واحد صديقه، ولم يجرؤ لا على إيصالها إلى الضابط ولا على فتحها، وقد فتحها منذ أيام، عندما علم بتسريحنا، فلم يجد بها إلا سلامات وفي النهاية، يرجو الطالب الاهتمام بمن يحملها، مرة دخل علينا أبو الطاهر، مع رائحة كريهة وكمية هائلة من الذباب، وهطولات متفسخة تنحدر من ثيابه، ما هذا يا أبا الطاهر؟ اتركنا واذهب، اذهب واغتسل، قال: لا أدري، كنت جالساً في الحمام فوقع شيء عليّ، وذهب، وتابعنا لعب الورق، بعد قليل جاء أبو قاعود يسأل عن مكنسة، قال: الحمام زاقم، وبينما هو يؤدي واجبه، انكسر البوري وعرفنا أن كل هذه الأشياء القذرة سقطت فوق أبي الطاهر، فهل عندكم سلاته أو مكنسة للإعارة، سوف يردها بعد أن ينتهي، وأبو قاعود هو المستخدم الذي ينظف المكان الذي ننام فيه، والذي يتألف من طابقين.

سوف أكتب قصة ذلك الشاب الذي خطف امرأة وجلبها إلى القاعدة، وأكتب قصة الرقيب أوّل المجند الذي أخذ بعد الدورة، وعاد إليها منذ أيام، قصص وحكايات الأصدقاء التي لا تنتهي، سأكتب عنهم جميعاً.

ووضاح الذي خرجت من عنده ذلك اليوم، ولم أعد أراه، أعرف فقط أنني كنت ومجموعة من الأصدقاء نحتسي الخمرة، في النادي، عندما جاء رابعنا، قال إنهم

يعتقلون جماعة الرابطة، كنا ثلاثة ومكث رابعنا، ظللنا نشـــرب ونشـــرب صـــامتين، وطلبنا المزيد وكنا صامتين، أتى الذي جاء وألقى جملته، وظللنا صامتين.

شربت الشاي وحدي، حاولت أن أوقظهم ففشلت، كان علي أن أذهب، كتبت كلمة للفنان على ورقة جريدة، قلت له فيها أن يأخذ السرير وما عليه، تذكرت بأن عليه أن ينقل عشرات الكتب الماركسية، كنت أجلبها معي من المركز الثقافي السوفييتي، فأنا أزوره كل يوم تقريباً، ما عدا أيام العطل، كنت أمرّ عليه فأجد الكتب ملقوحة عند الباب بعناية، فأجمع منها كمية، وآخذها إلى البيت، أضـــعها بين الحديد والفراش حتى أصـــبح عددها كبيراً، من مثل: هكذا يبنون وطنهم الاشـــتراكي، وما العمل؟ إلى آخر هذه الكتب. وكتبت له أيضاً أن يأخذ ما يريد من البيت، فلا رغبة لي بشيء من الموجودات.

لبست ثيابي المدنية وأعددت نفسي للرحيل، ها هو كيس البحار على الواجهة عند الباب، أحمله وأنطلق، ربما تكون الرحلة الأخيرة، وقعتهم على ورقة الاســـتلام، ســـآخذ هويتي المدنية وكالعصـــفور الدوري أكون، انطلقت نحو الشـــمال، ســـأترك أبا حسان يصعد وحيداً نحو القمر، والفنان الذي لن يغادر دمشق وأنور الذي لا يتكلم، وأبو عذاب الذي يعد الدلة ويضع الحشـيش فيها، يقول كي أجيد التكلم مع الناس، ما كان أروعه وهو يدخل مع فاتنة الشـــقراء، ســـمعت صـــوت حذاء نســـائي فنظرت من الشـــباك، كان الصـــوت لها، فاجأتني بكثير من الماكياج الفاضـــح، امرأة لها طول فارع، تستطيع أن تقول بطولي، ويمكن أن تزيدني في الطول قليلاً، لها شعر أشقر ووجه يضج بالماكياج، حمرة شفاه فاقعة، ظل على العينين، وجهان كريم أساس وقليل من الحمرة على الخدين، وقفت وقالت: أين البيرة؟ فما كان أســـرع من أبي عذاب وهو يفتح لها الباب، مع كلمة تفضـــلي يا روحي، وطلعت روحك إن شـــاء الله، تقولها باللبناني، اللهجة التي أذوب وأنا أســـمعها من ســـيدة، فاحت رائحة العطر فملأت المكان وجاوبتها رائحة المكان، فانصهرا، فغدت رائحة تضرب على الأنف وبشكل قاس، ما بين الرائحة الطيبة ورائحة القذارة التي تنبعث من هنا.

هذا الأبو عذاب فرجة، في بداية الحرب اللبنانية، والتي اســـتطعنا فيها أن نوقف نزيف الدم اللبناني، عاد من لبنان بغســـالة في أول مبيت، وهكذا دواليك، فمع

كل مبيت ينزّل فيه براداً، فبانيو، ويبيعها لا أدري لمن... والآن صار ينزل البواري وأشرطة النحاس، وها هو ينزّل معه فاتنة الشــقراء... ويغلقان على نفســيهما الباب، بقيا هكذا ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع رأيته وهو يجلب بعض الأطعمة، فلمحت له أن ماذا حل بالآنســة، فطلب مني الدخول، قلت، لا، لا أرغب، فألح ودفع الباب، وصــرخ علي أن أدخل، وإذ ذاك خجلت، فدخلت، كان قد أزاح الباروكة عن رأســه وهو ينتف أمام المرأة، شعره أسود قصير، طلب منه أبو عذاب الترحيب بي، فقال: لا أهلاً ولا سهلاً، ألم ترني مشــغولة، وفعلاً كان أو كانت مشــغولة جداً، فهي أو فهو قد بدأ يضــع كريم الأســاس على وجهه، صــنع لي شــاياً، فشــربت، وابق كي نتغذى معاً، علمت بأنهما سيسافران إلى لبنان غداً، وقال لي: إذا كان لي مصلحة فاتركه عندك.

****

كنت قد سلمت كيس البحار واستلمت هويتي المدنية، مضت سنتان ونصف وأربعون يوماً دون أن أراها، أقف على باب القاعدة أنتظر ســيارة تقلني إلى دمشــق المدينة العربية وقلب العروبة النابض، ها هي الســيارة قد وصــلت، ودّعت الأصــدقاء المتطوعين، نظروا بأسى إلى بعضهم، ثم انطفؤوا، ها أنذا أركب السيارة مدنياً، كأني لم أرتكب أي معصــية، حياة يجب أن تمرّ... وقد مرّت... أصــل إلى دمشــق، إلى شــارع السادات، إلى سوق ساروجة، فأجد البيت قد خلا إلا من ثيابي والبابور، فأضب الثياب في الحقيبة، وأضع البابور في كيس نايلون أسود، وأترك البيت ورائي، النهار يصدح على البيوت، وجارتنا لم تخرج بعد، أودع باب بيتها، ثم أمضي.

ها أنذا حرٌ طليق، أين أنت يا وضــاح؟ هل اعتقلت؟ ربما، أم أنك ترتدي الثياب المدنية الآن بعد أن أطلقوا ســراحك، أين حزب الشــغيلة؟ هل فرط؟ العصــا الغليظة تعتقل الناس، شــبان وفتيات، طلاب جامعة وعســكر، الاعتقالات بالمئات، ورابطة الشغيلة تفرّ، تهرب في كل مكان.

كنت أعود ليلاً إلى حكر السرايا، وفي أحد المرات وجدت عند باب أحد البيوت منشوراً، وآخر عند باب بيت ثانٍ، وعندما قرأته... كان يقول إن الحزب انتقل من رابطة الشغيلة إلى حزب العمل... قرأتها وأحرقتها، ربما وضاح نسيني كما نسيته، ربما...

ترى هل تتذكرني نعيمة؟ ماذا حلّ بها؟ ما زلت أذكر لون جسـدها، وهي تغتسـل وهي تغني، وهي بين يدي، أدعكها وألملم قطع القمر المنثور على وجهها، ربما هي في السجن، كنت قد تعرّفت في دمشق على جماعة المثقفين، كانوا ينزلون في النادي على اسمي، كانوا مدنيين وكنت عسكرياً، أسجل اسمي في رأس الصفحة، وتمتلئ الصفحة إلى نهايتها، نجلس بشـكل جماعي، هذا الشـاعر فلان، وهذا القاص فلان الفلاني وهذا الروائي فليتان، وهذا المسـرحي، والمخرج والممثل... فنشـرب ونغني حتى يغلق النادي أبوابه.

الآن لا أحد، العصـا الغليظة هوت على كل هؤلاء، فتشـتتوا أو اعتقلوا، أو هربوا... ها هو الباص قد جاء، أدفع الحقيبة إلى المعاون، ثم أصـعد، أجلس في مكاني، يتحقق رجل جالسٌ عند الباب من هويتي المدنية، ويكتب معلومات عنها، ثم يناولني إياها فأذهب إلى مكاني وأستريح من لقب عمره سنتان ونصف وأربعون يوماً...

بعد ثلاث سنوات

تغيرّت كثيراً، فأنا الآن إنسان نظيف تماماً، شاب أسمر، أرتدي بذلة سوداء، وقميصاً أسود، أجلس في الفرقة الحزبية، فأناقش وأحلف وأضع آرائي فيما يستجد من أمور، أعطوني في الجيش، ساعة التسريح ورقة، عليها اسمي ورقمي الحزبي، طالبين تزويدهم بأنني التحقت بالعمل أم لا، ومختومة بختم أزرق كبير وموقعة بتوقيع أمين الفرع العسكري.

في البداية ناقشت الموضوع في رأسي كثيراً، فما معنى أن أكون حزبياً، كل من ينتمي إلى حزب البعث الاشتراكي، يسمى حزبياً، يرجى أخذ العلم، معناه أنني أتحوّل إلى انتهازي، خاصة وأنني كنت قد قبلت في المسابقة التي أجرتها وزارة التربية لنا، وكان رقمي الثالث والثلاثين عينت في أول الأمر في الريف القريب، وسلمني موجه اللغة العربية آنذاك، إدارة المدرسة، ولكن وبسبب تلك الورقة فقد ذهبت إلى الفرع وقابلت مسؤول التربية الذي طمأنني أنهم بحاجة إلي وأن لا آكل همّاً من أجل تعييني خاصة وأن لدينا صيفاً، فلأنتظر قليلاً.

جلست في الفرقة الحزبية، كانوا يناقشون على مهل، استمديت من فرقتي الحزبية في الجيش قوتي ومن كلام الرائد تقمصت بعضاً من صوته وحركاته وكلماته ما يعينني على هؤلاء جميعاً، وبدأت أدخل النقاشات والحوارات، وعندما شاء أمين الفرقة شتمي شتمته بطريقة مهذبة، فاستشاط غضباً واحمرت عينه مني، لكنني لم أبال، وصرت كلما كلّف الرفيق الواحد بمهمة حزبية أنبري له وأقرعه، حتى ضجت الفرقة بجميع أفرادها. فلا يكاد يمرُّ أسبوع إلا وتسمع عني خبراً يسرُّك، فالشهر الماضي تناولت أمين الفرقة بموضوع ثقافي، والأسبوع الذي يليه تناولت فلاناً الفلاني، وهذا الأسبوع تناولت فليتاناً، وهكذا إلى أن أصبحوا يحسبون حسابي لكل محاضرة ثقافية.

البارحة فقط زارني أحدهم، الرفيق هذا كان سيلقي محاضرة ثقافية، وهو من قيادة الفرقة وقال: يا رفيق أرجوك إنني أتلعثم، ولا أجيد القراءة إذا أحد تكلم

معي، فكيف إذا عارضني، قلت لــه: ولا يهمك توكل على الله. وفي اليوم التالي، راح يهدر علينا هدراً، ويقع بأخطاء لا يمكن الوقوع بمثلها قط، قلت: توقف يا رفيق الموضـوع لم يعد يحتمل، وشرحت للرفاق أفكاره فكرة فكرة، وأنهيتها بأن دخول الجيش السوري إلى لبنان الشــقيق كان لإيقاف نزيف الدم اللبناني، ولم أعد أرفقها بالعربي، لأنني هنا في مجال آخر.

ها قد أصــبحت مديراً في المدينة، أخرج في الصــباح الباكر فأمر على الســرفيس، فيقلني إلى مكان عملي، فأخرج مع المعلمات، فيفرفح قلبي وأتملاهن، فاليوم تعجبني هذه، وغداً تلك، وبعد غد الله أعلم، أصــل إلى المدرســة، لأبد بنشــيد البعث، وأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. أجلس على الكرسي البرّام، أتملّى الغرفة الواسعة، السجادة الكبيرة في وسطها، يأتي المستخدم وهو يحمل الصينية، فيها إبريق الشاي، والكاسات وملعقة السكر والسكرية. يصب الكأس ويضع لها السكر ثم وهو يحركها، يقدّمها لي.

أنا الآن متزوج، لي امرأة ناضــلت كثيراً حتى حصــلت عليها، تجيد كل أفانين التلاعب كي أبقى رهينة لها، بالمقابل لم أكن شــريكاً بريئاً، يعني لا بدّ من مغامرة هنا، ومغامرة هناك، فالحياة يجب أن تسير بشكلها الجمالي، ليس إلا.

سابقاً كنت أصطاد فريستي، أخطط لها، وأضع الأفخاخ في طريقها، وأبرمج لها إلى أن تقع، وقد لا تقع، الآن لم أعد أفعل كل ذلك، النســاء يخططن للإيقاع بي، ويبرمجنني، وتضعني كل واحدة في مخططاتها، وباعتبار أن المدرسة التي بجانب مدرستي هي مدرسة ابتدائية، يقودها كادر معلمات ومديرة ومديرة معاونة، وباعتبار أن نوافذها تطل على باحة مدرستي، فقد كانت المعلمات يجلسن على النوافذ ويضعن أيديهن على أســفل ذقونهن ويتأمّلن الباحة وما يجري فيها من أمور تربوية كضــرب بالعصــا على اليدين، وضرب الكفوف السريعة والبطيئة، وضرب الفلق بالخرطوم، هكذا نسميه عندنا، وفي مناطق أخرى يســمونه بالنربيج، بحيث كان الولد اليافع يترجاني وأنا كلي آذان صاغية، وعندما ينتهي كنت أقول له: اخلع، فيعاود الرجاء لكنني كنت أهدده بأن يجلب أباه إلى المدرسة، عندئذ يقر خاشعاً أن الفلق ضرورة حتمية، ويبدأ بخلع حذائه

وهو يبكي، وكنت أجد النساء المعلمات وأيديهن على أسفل ذقونهن، فأفرح أشد الفرح، وتنتابني حالة من النشــوة البالغة لا يمكن أن تتحقق فالعصــفور بين يدي وقد خلع حذاءه، تأتيني رائحة قذرة من الرجلين، آمره بأن يذهب ويغسل رجليه، فيذهب ليغسل رجليه، وأثناء ذلك أكون قد مررّت رســالة للتي فوق، طبعاً ســتظن كل المعلمات أن الرسالة لها، وذلك بأن أمسح شعري وأنا أنظر إليها، أو أضع يدي على قلبي، شيء من هذا القبيل، فيجاوبنني جمعياً برد على الرسالة، وذلك بأن تمدّ الواحدة منهن يدها على شـعرها تسـويه، أو على قلبها، خمس نسـاء ينفرن من الشـبابيك الواسـعة والمحدّدة والمشبكة بالحديد والشبك، يحدقن بي، وماذا سأفعله بالعصفور ذي الرائحة النتنة.

يأتي العصــفور وقد غســل رجليه بالماء البارد، أطلب منه أن يرفع رجليه، فيرفعهما إلى حيّز معلوم، لا تكفيه هذه الرفعة، أطالبه بأن يرفعهما إلى أعلى فلا يســتطيع، فأجلده وعلى مؤخرته، فيرفع إلى أعلى، أليحه واحدة أخرى، أن إلى أعلى، فيحاول أن يرفعهما إلى أعلى ولكنّه لا يتمكن، فأصرخ على الموجه، الذي غالباً ما يكون إلى جانبي، فيصرخ، أمرك أستاذ، أطلب منه أن يرفع رجليه، يمسكهما ويرفعهما عالياً، والنســاء يتفرجن علي، وأنا في حالة النزق والرعونة والولد يبكي، والموجه يمســك بالرجلين، وهات يا ضرب، أضرب وأضرب كأنما لن تهدأ الأرض ولن تسكت السماء.

- هل انتهيت...

- لم أشف غليلي بعد.

- دعني أكمل عنك.

ويأخذ الموجه الخرطوم من يدي، ويوقف الطالب الصــغير على رجليه، والطالب الصـغير يترجّى ويتوب إلى الله، والموجه يضـربه خمسـاً على يديه، والنسـاء تتفرّج علينا بصمت إلى أن تنتهي الحفلة.

وعند الانصراف تبدأ المخططات بالتنفيذ، فنحن ننصرف مع الآنسات ليحلّ بدلاً عنّا فوج جديد يتسم بالصراحة والسرعة والقسوة، إنه فوج الابتدائي، والنسـاء كان

يحلّ محلّهن فوج آخر يتسم بذات السمات السابقة، ربما لأن علاقتي غير مريحة معهن أتكلم عليهن بهذه الصفات.

أذهب إلى موقف الباص الذي يكون قد أصبح مريعاً من الزحام. وابتعد قليلاً للآنسة، طريق للآنسة، مقعد للآنسة، وأكون قد حصلت على مقعد بجانب الآنسة، لأحاكيها وتحاكيني بصوت خفيض كي لا يشعر بنا الآنسات والأساتذة. أين كنتِ البارحة، أو صباحاً.. لم أرك اليوم.. كلمات من هذا القبيل إلى أن ينتهي بنا الباص في موقفه الأخير.

آه ما أسعد تلك الأيام، من الوصول في الصباح والظهيرة وزمن المسيرات، كان الأب القائد يحب أن يرانا ونحن نسير، فمنذ الصباح، ترانا وقد هيأنا الفعاليات، والفعالية هي إما علم سوري، وإما لافتة مكتوب عليها شعارات، وإمّا صورة للسيد الرئيس، وإمّا كلمة يحملها باليد طالب، كنا سابقاً أشد وحشية وأكثر صلابة، فقد نردّد: لا دراسة ولا تدريس حتى يرجع الرئيس، أمّا اليوم، فباعتبار الرئيس لم يغادر مكانه، وليس مثل عبد الناصر، يعني ليس هناك انفصال، وقطيعة بين البلدين، فلا حاجة لمثل هذه الشعارات. كنا نخرج من باب المدرسة، وباعتبار أن مدرستنا إعدادية، فإنها سوف تخرج قبل المدرسة الابتدائية التي بجوارنا، ونصفُّ الطلاب على جدار المدرسة، الذي معه فعالية في المقدمة والأطراف، والذي ليس معه فعالية نملؤه في الوسط، ثم يتقدم الركب، المدير الذي هو أنا في المقدمة، ثم المعاون ثم بقية الشبان من مدرسين وأمين للسر، الموجهون يكونون بين الطلاب، واحد في المقدمة عند اللوحة الكبيرة التي تحمل صورة الأب القائد والثاني في الوسط، والثالث في النهاية، حيث يتحول التجمع إلى شوربة كما يقول مدرب الفتوة، أنت هناك يا حمار، شوربة أليس كذلك، والله لأعمل وأترك فيكم عندما نعود.

وتمضي المسيرة تؤيد خطوات القائد وتباركها إلى أن تصل إلى نقطة التجمع الأولى، فتلتحم مع مدارس أخرى، ثم تمضي على نسق واحد إلى نقطة التجمع الثانية فتلتقي بمدارس أخرى، والطلاب، كل واحد فعاليته بيده، وباليد الثانية يمسك الفعالية، ويكون الحشد عظيماً إلى أن نمرّ من أمام الفندق السياحي، وهو واحد من أبرز معالم

البلد في العصــر الحديث، فهو يطل على الســاحة العامة، وله شــرفة يمكن أن تلقى الخطب منها، أضــف إلى ذلك أن التلفاز يمكن أن يتوقف أمامه بكل راحة ويصــور، وتصل الجموع إلى التلفاز وتحتشد، وتبدأ الهتافات والشديات التي تعلن ولاءنا للقائد البطل، وهنا نحتشــد رجالاً ونســاءً، طلاباً وطالبات نردّد بأن هذه الحشــود التي بلغت مليوناً ونصف المليون تؤيد خطوات القائد، نقولها أمام التلفاز بشكل هستيري، لنراها مساءً بعد أخبار الساعة الثامنة والنصف والتي تمتد حتى الحادية عشرة، فنعاود رؤية الأخبار مرة ثانية إلى ما بعد منتصف الليل.

وهنا ســمعت صــوت شــهرزاد تخرج من ألف ليلة وليلة وتذهب إلى ابنها الصــغير لتغطيه وتندس بجانبه... قالت: الوقت صار متأخراً ونحن لا نزال نسمع أخبارنا.

****

في صباح اليوم التالي لم تستيقظ شهرزاد من نومها مبكراً، لأنها تعودت على الكســل، أما أنا فقد ارتديت ثيابي كعادتي ولم أتناول إفطاري ولا فنجان القهوة لأن زوجتي اتجهت إلى المدرســة، نزلت الدرج فسمعت صوت إطلاق رصاص سريع حوالي عشر طلقات، قلت اللهم اجعله خيراً، كان الرصاص قريباً جداً، وأنا أسرعت إليه، عند مستشفى التوليد كان هناك جثة ملقاة على طرف الشارع، وأضراسها وأسنانها ملقاة بجانب الرأس، اللهم احفظنا يا رب، كانت السيارات والدراجات والعالم والناس يمرون بها مذعورين فيخلون ما حولها بســرعة، الرجل الذي يرتدي ثياباً عســكرية كان ينتظر القافلة، كعادته كل يوم، مرقت درّاجة نارية، عليها راكبان، اقتربت منه كثيراً، ثم طاخ، كانت الضربة في الرأس، هل يحتمل هذا الرأس عشر طلقات، لم يحتمل فسقط أرضاً، لا من فمه ولا من كمه.

أســرعت أغذ الخطى نحو الإعدادية وأنا أتلفت ذات اليمين وذات الشــمال، إلى أن بلغت موقف الســرفيس، كانت المعلمات قد حجزن لي مقعداً، كنت أعرفها تلك التي حجزت لي، هي التي كلمتني أوّل البارحة في الباص، كلمتني بصــوت خفيض كيلا

يفهم أحد من حديثها شـيئاً، كلمتني وجعلت مني امرأة، قلت: صـباح الخير، فجاءني الجواب من الجميع صـباح الخير، جلسـت على المقعد ورحت أعيد الحادثة لنفسـي، أعدتها مراراً وتكراراً، كنت قد رأيت مثل هذه الحادثة في دمشق أمام مكتبة ميسلون.

دعوت صـديقي الممثل إلى لقاء معي، اللقاء سـيكون السـاعة الثامنة مسـاءً، كان قد نام عندي، فصديقي أنور الذي يقاسمني الغرفة، اليوم في إجازة، كنّا قد سهرنا في النادي، وتكلمنا في السياسة والأدب والمسرح، وقال لي إنّه سوف يبقى في دمشق بعد تسـريحه من الجيش، فماذا سـوف يفعل في مدينة لا تقدر المسـرح، يقصـد مدينته، وتناقشـنا في أمور المسـرح مسـتفيضـين، من هو المخرج المسـرحي الذي سـوف ينهض بالمسـرح، ومن هم الممثلون الذين سـيتعاونون معه، اتفقنا على أن أفضـل مخرج للمسرح هو فواز السـاجر، فقد رأينا معاً عمله "رسـول من قرية تميرة"، وهزنا إخراجه لما فيه من حذاقة متينة، قلت لـه: لعله يكون واحداً من الممثلين الذين يتعاون معهم فواز الساجر، وهكذا مضى الليل أو نصفه إن لم نزد عليه قليلاً، رحنا نتمشّى في طريق حلب ومقبرة الدحداح حتى وصـلنا إلى شـارع السـادات، حينذاك طلبت منه أن نذهب وننام عندي، فوافق على الفور بخاصة وأنني أعرف أنه ينام عند أحد الأصدقاء.

أكملنا السـهرة مع إبريق شـاي وقليل من السـيكارات مما جعل غرفتنا ذات السـقف الواطئ تعج بالدخان الذي يتكتل تحت سـقفها، فقمت وفتحت الباب كي يخرج هذا الدخان الشّـره إلى ابتلاعنا وقلت لـه بأنني سـوف أنام، فقال لي لا ضـير في ذلك، فنمت وكنت قد وعدته السـاعة الثامنة مسـاء في مقهى "الإتوال"، قال لي ولكن أين يقع الحمام، فضـحكت لبلادته، وقمت آخذاً إياه إلى المطبخ وطارداً الجرذان من طريقه، انتظر حتى أنتهي، وكاد يتعثر، ولكنه حظه الجيد أنقذه، وخرج بأقل الخسائر... ولكن بعد أن غسـل يديه ورجليه، فاجأني بقوله: ما هذا؟ سـألته: عن أي شـيء تتكلم؟ فقال: هل أنتم بشـر أسـوياء؟ ثم تركته يتكلّم بما يشتهي عما كان يسمّى حماماً ووضعه والمطبخ وقذارته، قلت له إنني لا أدخل إليه، إلا في الحالات القصـوى، منبهاً إلى أنني أفعلها في الجيش عند الصباح أو في المقهى عند المساء، وغالباً ما أسرق قطعة الصابون من المقهى، إذا لم يكن لدي صـابون هنا في بيتي، ظل يتكلم ويسـبّ ويلعن، وكنت أغط

في نومي، إذ سـوف اسـتيقظ مبكراً عند الصـباح، كي أصـعد إلى القافلة التي تمرّ من شارع السادات.

في المساء حلقت ذقني وسشورت شعري على السيشوار، برمته بالمشط الذي يبرم، إلى أن أصبح وكأن حلاقاً أصلياً قد رتبه لي، وكنت اشتريت السيشوار بخمسين ليرة وهو ماركة مولينكس، والخمسين ليرة أعطوني إياها في الدورة العربية الخامسة، فما إن انتهت الدورة حتى جمعونا وشكرونا على التعاون الذي أبديناه ثم أمروا المحاسب بأن يصرف لنا مبلغ خمسين ليرة، وتهيّأ، استاعد، استارح، انصراف.

اتجهت إلى بوابة الصالحية، وصرت أتنقل بين الصبايا، عل واحدة تعجب بي، درتها أكثر من عشرين شوطاً إلى أن بلغت الساعة الثامنة، فانصرفت من دوامي فيها فبعد قليل سيبدأ دوامي في النادي، مشيت حتى وزارة المياه والإصلاح الزراعي، وهناك قلبت باتجاه ساحة الإتوال، وعند مكتبة ميسلون، كان البناء الذي أمامها في حالة إعمار، وقع انفجار في برميل القمامة، وثمة طفلان انشالا من جانب البرميل، على ارتفاع عالٍ ثم سقطا، واحد جاء بجانبي على الرصيف، والآخر يعلم الله أين أراضيه، لأنني كنت في ساحة الإتوال، وصلتها، لا أعلم كيف... مثل رفة عين، ثم دخلت إلى المقهى الجميع كانوا يمارسون هواياتهم في الكلام بهدوء، وكأنهم لم يسمعوا انفجاراً، أردت أن أقول لهم أيها الناس، لقد وقع انفجار هنا، أمام مكتبة ميسلون، الانفجار كان ضحيته طفلان ينقبان في حاوية القمامة، ربّما ماتا، ولكنني أجلت ذلك، وأخذت الفنان صديقي، وتركتهم يلهون بالكلام ويشربون الدخان والقهوة والكابتشينو والميلو والبيرة والويسكي.

حكيت للفنان ماذا جرى معي، وعندما وصلنا إلى مكان الحادث، لم نلاحظ شيئاً موجوداً، كل شيء عاد كما كان، الطفلان لم يكونا، والقمامة لم تتبعثر، والشارع كان نظيفاً، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وذهبنا إلى النادي.

بعد أن توجبنا مع الفنان ووضعت أمامه عدّة المشروب، رحت أدور حول الحادثة، ثم أعدت القول بتفاصيل أكثر فقال محدثي، ربما كنت أتهيأ، أو هي من أثر الكحول علي، قلت وأقسمت إنني لم أشرب كحولاً بعد، قال: إذاً هم جماعة العراق.

استـقر رأينا على ذلك، وكنت كلما رأيت أحداً أعرفه أنادي عليه وأشـرح له الحادثة بالتفصيل، كما أفعل الآن، ولكنّي أشـرحها لنفسي هذه المرّة، فأعيد المشهد أمام بصـري قلت لنفسي هم جماعة العراق، هذا أضمن طريق للوصول إلى الجنة، القاتل والمقتول، كلاهما في الجنة.

كانت المعلمات يكلمنني فلا أجيب، وأحياناً أجيب بكلمات مقتضبة، تبدأ بنعم وتنتهي بلا. إلى أن وصلنا إلى الإعدادية فدخلت الغرفة، وصرخت على أبي سامي المستخدم الذي يحب الكلام ويحب الكتب الماركسية ويحب القراءة بشكل نهم، أن أصنع لي شاياً، فجاوبني فوراً: ولكن ألا تريد أن ندخل الطلاب في البداية، قلت: أدخلوهم إلى صفوفهم، ثم ولجت إلى غرفة الإدارة، وقمت بإغلاق الباب على نفسي، لم أرد على الهاتف الذي بدأ يرن، تسمرت في مكاني، وحين قرع الباب، لم انتبه إلا وأبو سامي صار فوقي، ماذا أصابك يا أستاذ؟ أنت لست على بعضك، هل هناك شيء؟ فشرحت له الموضوع بتفاصيله ووضعت له حبكة، صنعت لها أبطالاً، واخترت الزمان والمكان، واتفقنا على أنهم جماعة العراق.

وأبو سامي هذا رجل أكبر منا قليلاً، أوداجه مُنتفخة، أصلع قليلاً، يطرق رأسه بالأرض حين يتكلم، تربّى تربية ماركسية، وهو مؤمن بالشيوعية، إيمان لا يمكن أن يحيد عنه وكأنه يحمله على كتفيه ويصعد به جبلاً.

اشتكى لي المدرسون بأنه يسبّهم، نعم يا سيدي إنه يسبّهم ويسبّ الذي وقّع لهم على شهاداتهم إنه مثل الضباط في الجيش، كلما حصل لديهم استعصاء يسبوننا ويسبون الذي وقّع على شهاداتنا، ولماذا تشتمهم يا أبا سامي، يا أستاذ، أنا أضع لهم نفاضات وبدلاً عن الواحدة أضع لهم خمس نفاضات، ويتركونها فارغة ويلقون بالعقوب بين أرجلهم، بربك ألا يستأهلون هذه الشتائم... إيه كذا وكذا بالذي وقع على شهاداتهم، اتفو..

سامحهم هذه المرّة يا أبا سامي، وهم لن يعودوا لمثلها مرّة ثانية.

وأبو سامي مثال الرجل النبيه، يأتي مبكراً، ويلمّ الأوساخ على بعضها، يكنس أمام المدرسة وفي الممرات، ويدفع بالأوساخ بين المقاعد، ويحضر إلي ليريني صورة لينين

تحت معطفه، يقول لي: أنا لولا هذا، ويقلب ياقة معطفه، لانتحرت، إنه يعلمني الصبر على هؤلاء السفلة.

يضاف إلى ما تحدثنا عنه، إنه رجل مثقف، قرأ الأدب السوفيتي عن بكرة أبيه، هو لم يقرأه، يا سيدي، ادعى أنه قرأه، المهم يعرف الأدباء الروس والسوفيت وأدباءنا المحليين، تستطيع أن تقول عنه من أينما رنيته يجاوبك. مرة أحضر واحدة إلى المدرسة، كان يعمل سواق سيارة عمومي في دوام بعد الظهر، قال تعال وتفرج، فذهبت ونظرت، سبحان من صوّر، كانت مجلببة، وتجلس في الكرسي الخلفي للسيارة، سلّمت وقلت ارفعي الغطاء يا أمة الله، كان الغواء ينفر من وجهها، ثم قلت هذا يكفي يا أمة الله، فأشار علي أبو سامي، أنزلها، قلت له هذا عيب، ولما كان يعرف أنه لا أحد سواي في المدرسة، استغلها فرصة وأحضر المرأة إلى المدرسة، أنا كنت أتلهى بالبرنامج، وأتعلم عليه، ولكن المرأة التي ينفر منها الغواء قد استلبتني فأقفلنا المدرسة وصعدت معه بالسيارة، قائلاً لي: هيا سرْ معي. في السيارة تحادثنا بأمور المدرسة، لكنه لم يخرج عن أمور النظافة، والباب، لأن الباب بحاجة إلى رجل يهتم به، إنه مثل باب القاعدة في الجيش، فذاك يحتاج إلى 30 عسكرياً 12 ضابط صف وضابط كي يقوموا بحمايته، بينما هنا يحتاج إلى رجل واحد يضاف إلى عمله بالذهاب إلى المديرية كلما دعت الحاجة، ومع تكنيس أربعة صفوف، المهم عزله عن بقية المستخدمين، وتركهم يبيعون، فقد اتفقوا فيما بينهم أنه لا يصلح للعمل معهم، وأنهم يعطونه حصته من البيع وأبعد الله الكافرين. يا أخوان أين أضعه؟ قال جحا: الذي طالع الحمار على المئذنة ينزله، ولكني لم أوقع على أن يأتي أبو سامي إلى مدرستنا، قال: هم لا يعرفون، المهم أن يظل بعيداً عنهم، ويا دار ما دخلك شر. يتقاتل معهم، ومع الطلاب، إلى هنا وبس، خذه... دبره.

أخذته ودبرته عند الباب، يحرسه ويغلي الشاي للمدير، ويسقي الزرع، ويذهب إلى المديرية. لم يكن أبو سامي مفرزاً لعندنا أصلاً كان مفرزاً للابتدائية، ولكن المدير، وباعتبار أن المدرسة تحمل نفس اسم الشهيد، فقد تقرّر أن يتنازل لي عنه، كان المسكين واقفاً في الباحة يلوي رقبته، وبيده قرار نقله، فقد كان في مدرسة، وأعلن

المدير أن لا حاجة إليه في المدرسة، فائض، يا أخي، يا أستاذ، خذه لا نريد بديلاً عنه، ثم جاء تعيينه في مدرستنا الفوج الثاني أعني الابتدائي، فرفضه المدير قال: إنه ليس بحاجة إلى مستخدمين، والذين عنده يكفونه، إنهم أكثر من الهمّ على القلب، وقف المسكين في الباحة كقشة في مهب الريح، إلى أن قلت أنا: ما به، فشرحوا لي قصته بشكل مقتضب وهم لا يريدونه لأنه سيكون فائضاً، المهم قبلته دون مراجعة كشف حساب، وخلال يومين، استجارت المدرسة منه ومن أفعاله , كنت أضحك وأنا أستمع إلى أخباره، وأخيراً استقر عند الباب مع بعض الطلاب، يعطيهم اسم الكتب فيذهبون إلى المكتبة لاستعارته، وحين يحصلون عليه يحضرونه معهم، فيعلّمهم القراءة به، وغالباً ما يورد لهم أسماء كتاب كبار، من كتاب روس وسوفيت وعالميين وكتاب محليين، قلنا: لا بأس يعلم الطلاب على الأسماء الكبيرة للأدباء بالإضافة لتعليمهم القراءة، لأن المدرسة تغط في جهل عميم.

****

كرّت بنا السيارة إلى المحلق، وهناك كان بيت من قرميد توقف أبو سامي عنده، وأمرها بالنزول، أخذ مني مقدّماً أجرة الحسناء التي معنا، لم تكن حسناء ولا شيئاً من هذا، فما إن نزلت، ورأيتها حتى استعذت بالله من الشيطان، ولكن أبا سامي كان قد أخذ الأجرة سلفاً، ولأن نفسي فطايسية، فقد صمّمت على الموضوع. دخلت عليها، بينما بقي أبو سامي والرجل صاحب البيت المعدّ للإيجار خارجاً. لم أكن أتصوّر أن ذلك سيتم وبهذه السرعة، فقد أمسكت الحسناء، المرأة، نعتذر عن كلمة الحسناء، بثوبها، بجلبابها، الذي خلعته فإذا هي عارية، إلا من الخاتم الذي تلبسه، استلقت كتل اللحم فوق ما يشبه الفراش، وأشارت بيدها أن تعال، كان في ساقها كدمات زرق، وبطنها به زيادة، لا أدري ماذا تسمّى، الشعر مرتّب، على عيون مزيلة ومدبلة بالأسود، وثلاث وجوه أساس، وحمرة فاقعة وشامة، لا أدري هي صنعتها أم خلقة من ربّ العالمين، ما لنا بالطويلة، إنها مقرفة، بخاصة عندما اقتربت منها وشممت شيئاً ما

كالبنفسج مع رائحة واحدة لم تغتسل منذ بضعة أيام، أرادت أن تقبلني فما سمحت لها، فمن أين ستأتي كل يوم بمدير ينكحها، قمت إليها وشيئاً فشيئاً، وبمساعدتها تم الموضوع، وأنا أرفع رأسي كيلا أشمّ شيئاً من هذه الرائحة التي تجلب لي الغثيان.

هذه نبذة مختصرة عن المستخدم أبي سامي، ننهيها بما يلي:

كانت أحداث العنف قد كثرت والاغتيالات صارت بالعشرات، وكلنا نقول إنهم من جماعة العراق، لا بل إنّ أحد الرفاق في الاجتماع الحزبي، كان قد أطلقها جهاراً، قال: إنهم من التحرير الإسلامي، ومالت الخلق، أقصد الرفاق على بعضها البعض يتهامسون عن معنى التحرير الإسلامي، حتى إنّ أمين الفرقة تلكأ وقال التحرير الإسلامي، هو حزب سياسي يضم جماعة من الأصوليين، ولم يزد على ذلك شيئاً، وختم الاجتماع بأنه سيعدّ دراسة عن الحزب ويقدمها إلينا في الأسبوع المقبل، وعلى ذلك انفض الاجتماع في الساعة السادسة والنصف بترديد الشعار.

في الصباح، وبعد أن دخلت المدرسة، وصففنا الطلاب ورددنا الشعار وحيينا العلم، وأدخلناهم صفوفهم، دخلت الغرفة لأتسمّم كأساً من الشاي، فتح الباب، وكان أبو سامي عنده، ليبلغني أن المديرة تريد أن تقول لي شيئاً، أدخلها، فأدخلها... قالت: يا أستاذ صباح الخير أولاً، وثانياً، أنا عندما كنت آتية، عليم الله، رأيته، ماذا رأيت يا آنسة؟ نعم رأيته، كان يركب سوزوكي، وقد توقف هنا، هناك، وحفر حفرة، ووضع شيئاً فيها، ثم أغلقها وأدار مفتاح السوزوكي وغادر المنطقة، يعلم الله أنه منهم، كانت تقول الحادثة وهي متوترة، ماذا سنفعل يا أستاذ؟ الطلاب أمانة في أعناقنا، هذا صحيح، ولكن هل تستطيعين أن تحدّدي نوع ثيابه وشكله، هذا صحيح، إنه يرتدي ثوباً طويلاً، يعني جلابية، وله ذقن، له لحية، وأمسكت الهاتف إنه منهم، ألم يكن معه مرافقة، ربما كانوا أكثر من واحد، ربّما هم يقفون بعيداً عنه، ربما هم منتشرون، أبو سامي هات كأساً من الشاي للآنسة، لا أحد يجاوب.

اتصلت بشعبة الحزب، يظهر أنهم لم يداوموا بعد، اتصلت بالفرع، لم يجاوب، انتظرت قليلاً، مقدار نصف ساعة، فجاوبتني الشعبة الحزبية، اسمع يا رفيق لقد زرعوا ألغاماً، هنا في المنطقة، أمام باب المدرسة، المدرسة الابتدائية، إنه عمل

إرهابي، وأنهيت المكالمة مع الشعبة الحزبية على أمل أن يرسلوا أحداً يعرف كيف يتعامل مع اللغم.

مدارسنا كتلة واحدة عبارة عن أربع مدارس، اثنتان على الشرقي، أي أن بابهما على الشرقي واثنتان على الغربي، واللتان على الشرقي لا شيء أمامهما، تستطيع أن تقول مفتوح، لا طير يطير ولا وحش يسير، فمن أين طلع علينا هذا الرجل الملتحي، قلت للمديرة، هلمي بنا لنرى اللغم، فنهضت، ويظهر أنها مستعدة لذلك، فقد وصلت إلى الباب، وأنا أدباً سمحت لها بأن تسير أمامي، رغم أنني المدير، فمن غير المعقول أن تسير امرأة خلفي، ألم أقل لكم إنني استفدت من قعدتي في الشام.

بعد فترة قصيرة، لنقل نصف ساعة جاء الأمن، دوريات من كل الأصناف والأشكال حضروا إلى مكان المتفجرات المزروعة في الأرض، كنت قبل قليل أراقب الحفرة فوجدت التراب الأحمر قد قلب، كانت الأرض قد تبلّلت قليلاً من المطر الخفيف قبل أن يزرع الرجل الملتحي الأرض باللغم، قطعة بحجم طبق الخبز كان ترابها ناشفاً يختلف عن التراب في بقية المكان.

اصطفت الشرطة حول المكان تبعد الناس من الاقتراب، عند مدخل كل حارة وقفت الشرطة تمنع الناس من الوصول إلى المتفجرات المزروعة، وهناك الشرطة العسكرية، ولا أعرف لماذا جاؤوا... أضف إليهم عناصر الأمن بثيابهم المدنية، يشهرون مسدساتهم أو يخفونها، من كافة الأصناف جوي وبري بتشكيلاته المعبّرة عن أمن الدولة والسياسي والعسكري، ولم يكن عندنا أمن بحري فمدينتنا ليس فيها بحر والناس هنا يذهبون إلى اللاذقية وطرطوس ليقضوا الصيف، ويتقاذفون بالمياه البحرية، منهم ما إن يرى البحر حتى يخلع ثيابهم ويركض إلى الماء، يتدافعون إليه ويرشّون بعضهم به.

وصل الجيش، ربما من أجل ذلك جاءت الشرطة العسكرية، ومعه رجل في رتبة الملازم أوّل، طلب من الخلق أن تبتعد، فابتعدت، وباشر عمله، ونزلت العساكر وطُوّق المكان.

المعلمات في المدرسـة القريبة خرجن إلى الباب يتفرجن، والآذن يمنعهن، وبحجة يا آنسة هذا لا يجوز، قفل الباب، فذهبن إلى الطابق الأوّل جميعاً ليتفرجن، والمديرة أغلقت الأبواب والأطفال براعم المستقبل، خرجوا من الصفوف يريدون أمهاتهم مع العويل والصراخ والبكاء، وجاءت الأمهات والأخوات يردن أولادهن وأخوتهن، فمنعتهن الشرطة، فأخذن بالصراخ، ولأنهن لا يعلمن عن الموضوع شيئاً، سوى أنهم يقومون بتفجير المدارس، أي المدارس الأربع، فقد تآلفت الأصوات والبكاء والنشيج، وكان ذلك الرجل يدنو من اللغم وكنت قد أريته الحفرة وابتعدت أدباً كي لا يبعدوني غصباً، وانتظرت مع المنتظرين.

انبطح الرجل، واشتد معه البكاء والصراخ، اقترب الرجل من الحفرة المغطاة بالتراب حيث يوجد اللغم، وتصايح الناس، وصاحت الأولاد بالبكاء، قالت آنسة: إنه طويل البال لينهيها بسرعة، فجاوبتها واحدة من زميلاتها، إنه يؤدي واجبه على أكمل وجه، انظري إليه إنه ساحر.

وفعلاً كان المسكين يلوب على نفسه ويداريها خوف الانفجار، وأخرج مشرطاً وراح يتعامل مع كمية التراب بهدوء واستكانة، ثم توقف وأشار بيده، كان يريد مشرطاً أكبر من الذي معه، فاقتلع أحدهم حربة من بارودته وألقاها إليه، لم أكن أعرف من أين أتت الحربة، ربمّا من بارودة قديمة، ربّما.

أخذها وانبطح ثم زحف باتجاه الحفرة، كان العرق يتصبب منه مثل ضرف مثقوب، استعمل الحربة وساعدَتْهُ في الحفر أكثر حتى استطاع أن ينكش الأرض بمقدار إصبعين، كان لا يزال العرق يتصبب منه، ويظهر أنه ضايقه، فأحسّ كل واحد منا أنه يريد أن يتحول إلى شيء ويهش به الملازم أوّل عن وجهه، قطعنا أنفاسنا ونحن نراقب حركاته، فهذه هي المرّة الأولى التي يراقبون فيها نازع الألغام وهو يعمل، كان يشيل حفنة التراب وكأنه يرفع كومة من الذهب، وربّما أكثر، من يدري، ربّما وقع انفجار الآن، حينذاك سوف ترى الذعر قد انتشر بين الناس، وصاروا يذهبون في كل اتجاه، واختلط الحابل بالنابل، والأمهات والأخوات والأولاد، وجثة الرجل الملازم أوّل أصبحت نتفاً، والجيش بالشرطة بالأمن بالإطفائية، فعند ذلك حدث ولا حرج عن المفقودين

والضائعين والخارجين ولم يعودوا... اللهم فاستر، الحمد لله لم يحصل شيء من هذا. والرجل لم يزل يعالج الموضوع بالحربة، وها هو يزيح كمشة من التراب الذي سيعجن بالدم، ظهر شيء أبيض، فوقف الملازم الأوّل متراجعاً خطوة إلى الوراء، وصفح عن الذين له عليهم دين، طلب منهم أن يصرفوا الأموال في سبيل الله ولا يصرفوها على ملذاتهم الشخصية في الأقبية وما شابه، وإن كان أحد لـه عليه نقود فليسامحه الله، هكذا قال في نفسه وهو يمسح العرق البارد الذي يتصبب من جبينه إلى داخل جسمه.

نظر إلى الملأ، فأدرك حجم المأساة المروعة، اختلطت الرؤيا بالسمع، وشيئاً فشيئاً صمتوا... ونزل لينبطح على وجه البسيطة ويمسك الحربة ويبدأ باستخراج الشيء الأبيض. تذكر خطيبته في القرية، لم يشاهدها إلا لحظات وعدهم في الإجازة القادمة أن يذهب لزيارتها، ترى هل ستكون هناك إجازة ويراها فيها، من يعرف؟ عسى أن يفك هذا اللغز المحيّر، كان يدرّب مجموعته حين هتفوا له: إنهم يريدونك، فأسرع، قال له الضابط، هناك عملية نزع ألغام، المطلوب أن تفكها، كان واقفاً في حالة استعداد، فهذه المرّة الأولى التي يستدعيه فيها العميد، لم يجد فيه إلا نسراً أو نجوماً وعمرة مليئة بالشارات المذهبة، وهو في حالة استعداد للذهاب، تأخذه سيارة الزيل، وتذهب أنت وفلان وفلان وفلان، المكان يحدده لك عسكري المقسم، حاضر سيدي!

تراجع إلى الخلف، وأخذ التحية، سمع كلمة انصرف، فتأبطها، وهرول كانت السيارة الزيل واقفة في ساحة العلم، صرخ على الثلاثة الذين سيرافقونه، فأسرعوا يتقافزون في السيارة، لم يأخذ شيئاً معه، لقد صعقته المفاجأة، الآن وقد شعر بأن عليه أن يأتي بالعدة، ولكن الندم لا يفيد.

****

وهكذا يا سادة يا كرام، كان على الرجل أو الملازم أوّل أن يعمل بدون عدّة أو أشياء لفك اللغم، فعاود النزول إلى الأرض منبطحاً، وراح يعمل بصمت وبعرق يكفي

جيشاً يقاتل دفاعاً عن أرضه التي فقدها، نزل والحربة في يده وبدأ يسوّي الأرض ويحفر ما عليها ويزيل التراب الذي كان أغلى من الذهب في هذه اللحظات التاريخية من عمر أمتنا، الشيء الأبيض راح يتسع شيئاً فشيئاً والناس على رؤوس أصابع أرجلهم واقفون، المعلمات صمتن، حتى إن واحدة قد جاءتها فلم تنتبه واستمرت بالفرجة، المدرسون راحوا يقرؤون ورداً، ويهدونه إلى روح رسولنا المعظم. والملازم أوّل يهش التراب عن الشيء الأبيض، ثم أخذ يفرغ ما حوله وشيئاً فشيئاً، أخرج كيس نايلون ملفوفاً بعناية ومربوطاً من كل أطرافه، كأنه يد مربوطة مع العكس، وضع الرباط على طرف ووقف يريد من يمسح له عرقه، أسرع رجل ليس ككل الرجال وألقى له محرمة، لم ننتبه إليه، صحيح لماذا لم نلق لــه منديلاً، فأخذه ومسح به عرقه، وأخذ نفساً عميقاً، ثم جلس على الأرض وطلب مقصاً، فالحربة لم تعد تصلح لعمله، صرخت عليهم أن يحضروا المقصّ، اندفع أبو سامي الذي كان واقفاً إلى جانبي إلى الإعدادية ليجلب المقص، ارتاح الملازم أوّل، ارتاحت الناس، كنت ترى جبلاً من التعب انزاح عن صدرهم، لكن المشكلة لم تزل قائمة، والجميع ينتظرون أبا سامي الذي تأخر، أين أنت يا خنزير الذرة، اللفة في الأرض قد تنفجر في أي لحظة، والخنزير لا يأتي، صاح الملازم أوّل أين المقصّ؟ قلت لــه سنحضره بعد قليل، أردت أن أقول إنني أنهيت خدمتي الإلزامية منذ زمن قليل، سنتين، ربّما، وكان لي صديق في الجيش يكشف الألغام، كان يسرح كثيراً، وأحياناً أخرى كان ينام، ربّما هذا هو الآن، ربما لم يكن هو، أين أنت يا أبا سامي الزفت، ها هو، خارج من باب الإعدادية وبيده المقصّ، وصل أبو سامي فأخذت المقصّ منه، وألقيته إلى الملازم أوّل، الذي أمسك به وراح يقطع الخيطان المحيطة باللفة، قطع خيطين واستراح، أي مهمة شاقة أرسلوني إليها، كنت أدرس فقط الألغام، وأناوب، أربع حصص في الأسبوع، وأناوب كل ثلاثة أيام، هم يلعبون الورق، أمّا أنا فإنني أستريح فوق السرير، يقولون لي هل تلعب فأقول لا إنني لا أعرف، فيقولون نعلّمك فأقول لا، إلى وقتٍ آخر.

تابع الملازم أول قصّ الخيوط حول الربطة، حتى أنهاها جميعها، وهنا استراح قليلاً، وأخذ نفساً طويلاً، ولأنه يريد أن ينهي عمله، فلم يقف، بل استراح في المكان،

كان المنديل على الأرض بجانبه، أخذه ومسح جبينه ووجهه كله، وأمسك بالمقصّ وتابع عمله، يقصّ النايلون، ويتدفق شيء أبيض ناعم، جميع الناس سكتوا، لم تعد تسمع لهم صوتاً، حتى الأولاد سكتوا، والنساء، والأمن والشرطة لم تعد تصيح على الناس، الضابط أخذ رشة، وصرخ إنه ملح، ملح، وضحك ضحكة هستيرية ملأت المكان، وصرخت أنا، ملح، ملح، وأبو سامي استجاب لصراخي والآنسات والأمهات والأخوات وعناصر الأمن والشرطة والجيش، أما الشرطة العسكرية، فلم يستجيبوا للنداء...

كان هناك عود أخضر لف بعناية بكيس نايلون وملئ الكيس بالملح، هذا سحر، صرخت إحدى الأمهات، الرجل لا يأتيه أولاد فنصحوه بهذه العملة، أن يضعه في التربة البكر ودون أن يراه أحد، فبكر وركب الشاحنة الصغيرة يبحث عن أرض بكر، قبل أن يستيقظ أحد من البشر، لكنه ما إن وصل إلى هنا، وعرف أن الأرض بكر وقام بدفن الغصن الأخضر الملفوف بورق النايلون والمعبأ بالملح، وسوّى الأرض وأقلع بسيارته الشاحنة حتى رأته مديرة الابتدائي في المدرسة التي بجانبنا، لم تقل شيئاً، ولأن غرفتها في مكان مرتفع راقبته إنها تعرف مثل هذه الأفعال، جمعت التلاميذ واصطفت المعلمات كل معلمة أما صفها، وحيّت العلم، وردّدت الشعار وأدخلت كل معلمة إلى صفها، نزلت الدرج وأغلقت باب الإدارة، وتوجهت إلى مدير الإعدادية وطلبت الآذن الذي يقف على الباب أن ينده لها على المدير، دخلت معه إلى الإدارة، ثم شرحت له الأمر.

****

المبتدأ، نبتدئ به الكلام، والخبر، نخبر به عن المبتدأ... إلى هنا ولم يحصل شيء نبتدئ به ولا شيء نخبر عنه، كل ما هنالك طقطقة هنا، وصوت هناك، وصوت هنا. إلى أن جاء في يوم أبو سامي، فقال لي: هناك واحد يريدك، قلت ما اسمه، قال رفض أن يعطيني اسمه، فتوجست خيفة، قال أبو سامي، يلبس جلابية ويضع منديلاً،

وله لحية، قل له المدير ليس هنا، فبهدوء أغلق الباب وخرج، وأنا بدوري كنت هنا فذبت، يا أخي كيف يذوب الملح في الماء، هكذا صرت.

عاد أبو سامي وأخبرني أن الرجل ما زال ينتظر، وهو يقول إنه صديق قديم من أيام الجيش، هنا أسقط في يدي، خاصة وإنني رأيت الرجل يقف بباب الإدارة.

نظرت إليه، فلم أعرفه، فعلاً كان يرتدي جلابية وله ذقن ويضع منديلاً على رأسه وتحت المنديل عرقية، رحبت به وأجلسته وطلبت من أبي سامي كأسين من الشاي، قال الجالس ذو الذقن أنت لم تعرفني، فقلت بلا صغرة لم أعرفك، ضحك، وقال أنا أنور... يا رجل.

أنور، كيف أنتَ، أقسم بالله العظيم لقد تغيّرت علي، لم أعرفك بهذا الزي، ماذا حصل بك؟ هات اشرح لي، أنا من يوم ودعنا بعضنا يعني منذ تلك الليلة لم أرك فيها، لقد عيّنت مديراً يا سيدي، وها أنذا على ما تركتني عليه.

قال، وعمر السامعين يطول: أنا منذ ذلك اليوم كوّنت أسرة، فقلت: ألف مبروك، أنا أيضاً تزوجت، وحبلت زوجتي وولدت صبياً، سميته فراس، قال: اسمع يا أبا فراس، فسمعت، أنا لا أحب أن أدخل في الملاك، يعني رحت أتصل بالدول الشقيقة والمجاورة لبلدنا، عسى أن يكون لي نصيب بالعمل عندهم، الوظيفة لم تكن تغري وخاصة يريدون موافقة الأمن على التوظيف. طرق الباب فكان أبو سامي في الباب وبيده إبريق الشاي وثلاثة كؤوس، وضعها وانصرف. المهم يا سيدي تقدمت إلى السعودية، وإذا بهم بعد فترة يقولون لي الفحص بالبرامكة فطرت إلى دمشق، وأجريت فحصاً، تستطيع أن تقول إنني كنت من الأوائل، قلت له هات من الآخر، هذه الأشياء أعرفها، وفعلاً كنت أعرفها فقد حكى لي كثيرون عن فحصهم وقراءة القرآن وإعراب كلمة أو اثنتين، وسؤال له علاقة بالتربية، ومبروك. ابدأ لي بالذي أرجعك، فقال زوجتي، أقسم بالله هي، لولاها لكنت الآن في الجنة، تصوّر أنني عينت في منطقة جبلية هناك في جبل تهامة، يا سيدي الناس هناك يعيشون مع القرود، قلت له: لا... مع القرود، قال: أقسم على ذلك، قلت، وما المشكلة تعايش معها، قال أنا أتعايش معها، ولكن زوجتي، قلت له، اشتر لها كلباً، قال لا تمزح، ولكن هذا ليس مشكلة، قلت، ولكن

أين المشكلة، قال: كنّا ننام على سرير ونضع صحوناً مملوءة بالكيروسين أسفل كل رجل من أرجل السرير، ومن أجل أي شيء تفعلون ذلك؟

من أجل ألا تصعد إلينا العقارب، صار شغلنا الشاغل في البيت هو البحث عن العقارب وقتلها، كنت أمسك بالكيروسين وأصبّه على دائرة تحيط بالعقربة وأشعله، أتعرف ماذا كانت العقربة تفعل؟ ومن أين لي أن أعرف؟ كانت تقتل نفسها، نعم تنتحر، وكنت أرتاح لهذا المنظر كثيراً، هكذا تضع مؤخرتها في رأسها، تلدغ نفسها وتموت. امتلأ حول البيت بالدوائر المتفحمة والمطفأة، ولكنني لم أترك القرية من أجل هذا، ولا من أجل الخبز الذي كانت زوجتي تقوم بخبزه، فقد فتحنا الصفيحة من منتصفها، كنا نضع أعواد الأشجار فيها ثم نشعلها ونضع العجين فوقها ليصبح خبزاً، أيضاً ليس من أجل هذا غادرنا المملكة... غادرناها لأن واحداً، بيني وبينه حسبة، قال لي، الذي لا ينفع في بلده لا ينفع ببلاد الناس، حينذاك قالت زوجتي: أقسم بالله، قسماً لا رجعة فيه، إن هذه البلاد ليست بلادي وإن وطناً لا أحترم فيه ليس وطني... حين ذلك حزمت أغراضي، وبأقرب فرصة رحلت عن المملكة.

يا سيدي حمداً لله على سلامتك.

جئت إلى هنا، وقطعت الأرزاق عني وأنا كما تعرف من الأوائل، صار لي سنة دون عمل، وأخوك صار يأكل لَحْمَهُ.

المهم

المهم، إنني بحاجة إلى عمل.

التدريس... فلا يوجد أنفع منه.

ولكن التدريس يحتاج إلى مسابقة.

والمسابقة غير مضمونة النتائج، وأجلها طويل، وأنا أفضل أن أدرّس ساعات، وهنا في الإعدادية.

على بركة الله، غيّر شكلك يا أبا النور، البس بنطالاً وقميصاً، واخلع هذه الجلابية واحلق لحيتك. قال: اشذبها، قلت: لا بأس شذبها، وهذه ساعاتي الإضافية،

سأسويها لك، وهذه ست ساعات ديانة، أصبح المجموع لا بأس به، اشتغل بالطير المقصقص حتى يأتيك الطيار.

شرب شاياً وانصرف على أن يأتي في الساعة الثامنة إلا ربعاً بعد غدٍ.

قلت: سبحان الله، ما سافر طير، وارتفع، إلا كما سافر وقع.

إنني أخلط، أليس كذلك، بعد تشويش الرؤيا لدي، فلم أعد أستطيع التفكير، ها هي الفرصة الأولى تدق، والطلاب ينزلون من برجهم العاجي، على الدرج ليتصايحوا ويتخابطوا، ترى هل عندهم درج، لا أظن ذلك، نحن كان عندنا درج وكنا ننزل إليه في كل يوم، ونخلع النطاق من وسطنا ونسلخ أجساد بعضنا، كنا في الصف الثالث الإبتدائي، ما إن يقرع الجرس حتى ننزل في حالة استعداد، نخلع النطاق ونبدأ بالضرب، لمن؟ للذين كانوا تحت الدرج، وهم يضربوننا، لماذا؟ لا أعرف. نظل على هذا الحال إلى أن يقرع الجرس مرة أخرى، فنتأبط بعضنا ونترادف اثنين، اثنين، إلى الفصل الذي كنا فيه.

****

كأن على رؤوسهم الطير

جاءني أنور، كان قد تغير تماماً، يرتدي طقماً بنياً، وحذاء وقميصاً فاتحاً، كان قد شذب لحيته، فصارت خفيفة، وكنت قد جلبتُ له من المفتش اثنتي عشرة ساعة، قلت دعه يفرح. في تلك الأيام كنا نعد لانتخابات الحزب، وكان الرفاق ممن صار لهم عشر سنوات فيه يسخون في الدفع، نذهب كل يوم إلى مطعم، نأكل ونشرب، وتفضّل أنت يا من لديه عشر سنوات لتدفع، كنت قد وقعت على أبي رستم، وهو عجوز شارف على الموت، ولكن الموت كان يؤجله وأفضل ما فيه، سيارته البيجو ذات اللون السمني، التي نوصّل بها الرفاق إلى مقرّ بيوتهم عندما نكون قد ارتوينا من الشراب المسكر.

في تلك الليلة، رأينا أمراً جللاً، فقد خرجنا من مقصف المنشية، وإذا العسكر في الطريق، أو هم رجال يرتدون الزي العسكري، ربما هم طلاب ضباط، كانوا يفتشون السيارات، يفتشون عن الهويات، لم نسألهم، خوفاً من وقوع مشاكل ليس لها حسبان، بصمت كل مئتين من الأمتار، يشير إلينا الضابط، فنوقف السيارة، فيقومون بتفتيشها، ثم يطلبون هوياتنا، يراها الضابط، ثم يأمرنا بالانصراف. كان هذا يتم داخل المدينة، وكان طلاب الضباط ينتشرون على طرفي الطريق المؤدية إلى داري. وصلت الدّار، سلمت على الرفاق، متمنياً لهم ليلة، أرجو أن تكون سعيدة، فهرعت إلى الشرفة، التي تطل على شارع رئيسي، صنعت قهوة وجلست أتفرج على طلاب الضباط، وهم في حالة استعداد، والبارودة الروسية عيار 7ر62، موجودة بين يديه، والضابط الذي يرافقهم يشير إلى السيارات فتتوقف، ماذا حصل؟، أعتقد أن كل المدينة كانت تعرف ماذا حصل إلا نحن، أو إلا أنا، فهم سوف يجدون زوجات أو أولاداً يخبرونهم بما حصل... أما أنا فزوجتي نائمة، وابنتي أيضاً، وعلى هذا فلا يمكن أن أعرف ماذا حصل؟ إلا في اليوم التالي.

في اليوم التالي، توجسنا خيفةً حالما عرفنا القصة، وكأنّ الطير على رؤوسنا واقفة، فقد ارتكبت مجزرة تشيب لهولها الولدان، فعند مساء ذلك اليوم، أقدم

النقيب إبراهيم اليوســف، على جمع طلاب الضــباط الذين ينتمون لطائفة معينة في الندوة، وكان قد أدخل مجموعة من الإخوان المســلمين إلى الندوة، واختبؤوا فيها وراء النوافذ، ومع الاستاعد، بدأ إطلاق النار على أنها حملة الصواري المسلحة، ولما تأكد من الجميع أنهم قتلى، أخذ مجموعته وانسحب خارج المدرســة مع أســلحتهم، واختفوا في المدينة.

اعتقد.. إنها المرّة الأولى التي تسميها الدولة بجماعة الإخوان المسلمين العميلة التي أقدمت على ارتكاب مجزرة بحق طلاب ضباط مدرسة المدفعية.

****

كثرت على صفحات الجريدة الوحيدة في المدينة أخبار الجماعة، فمن قتل إلى مداهمة أوكار، هكذا كانت تســميها الدولة، وهي أماكن اختباء الجماعة، إلى الاغتيال، صــارت أخبارهم حديث البلد، والذي ليس عنده حديث، ويتأكد أن الأرض ليســت ملغومة، يبدأ، هل ســمعتم بحادثة... ويكرّ الحادثة، وذاك ســمعها على هذا الشــكل والأخر يرى أن...، وفي البيت الواحد كنت ترى شــخصــاً ينتمي إلى حزب الســلطة، وشــخصــاً آخر متعاطفاً مع الجماعة، وآخر شــيوعياً، وكان الضـحية دائماً في حزب الســلطة، فالمســكين لا يعرف ماذا يفعل، إن أبدى رأياً، ينظرون إليه وهم يتوجســون خيفة، وإن ســكت يجبرونه على القول وهم ينظرون إليه نظرة ارتياب، وإن جاء أزواج الأخوات، تراه يختبئ في الغرفة الثانية، ويسمع أحاديثهن التي تهزّ البدن.

قدَرٌ، هذا ما قاله الجالس وحيداً يســتمع، ذاك الحزب يطالع على التلفاز الذين تخلوا عن التنظيم، وهذا الحزب يأمرهم بالانســحاب منه والتوبة عنه، وذلك بالذهاب إلى المســجد الفلاني "حقيقي كانت البلد تخرب" هذه الجملة أرســلها عبد ربّه إلى صــديقه الجالس في باريس في شــارع "Les Dames" وأعطاه صــورة كاملة عن البلد، كيف يداهمون الأوكار، الشــوارع المليئة بالمصــفحات والدبابات، عناصــر الجيش، الحزبي وماذا كانوا يفعلون به، إن دروا أنه حزبي، لأنهم كانوا يقولون لهم، إنكم ســبب

البلاء، وكيف اجتمعوا مع الرفيق مشـــارقة، وقال إنهم أربعة جرذان، لم تســـتطيعوا القبض عليهم أو قتلهم.

هكذا كانت الحياة، الخارج مولود والداخل مفقود، وما بينهما، وفي هذا الزحام ضاع كثير من البشر، كنت تسير في الشارع عند الساعة السادسة مساءً، من شـــارع بارون مثلاً تجد الحرائق المطفأة، أغلقت الســـينمايات وانتشـــر الجيش هنا وهناك، وعناصـــر المخابرات يبرزون فجأة يطلبون الهويات والعناصـــر الحزبية، وقِسْ على ذلك الأمر الكثير... هذا يقول لك اليوم في ســوق العتمة واحد فتح صـدره، وإذا به قنابل، وطالب صاحب الدجاج أن يعطيه تبرعاً، فأعطاه، ولمّ من السـوق كلّه، وذهب، وذاك يروي لك حادثة وقعت وهذا شـهيد وهذا غير شـهيد، ومجموعة الاقتحام اليوم هاجمت، وفلان الفلاني كان يزور خطيبته عندما طُوّق الحي الذي تسكنه أحلام الربيع، عندها تقرر أن يذهب فلان الفلاني، كيلا يأتوا ويروه، وبعد أن مشـى مســافة مئة متر، قف... صـرخ عليه العســكري، فتوقف واســمك، واســم أبيك وأمك، وأين كنت، وماذا كنت تفعل، وما إن علموا بأنه كان عند بيت خطيبته، حتى ســـمع كلمة "اركع"، فركع، سـمع كلمة "منبطحاً"، فاسـتلقى الرجل على الأرض، وهات يا رفس ويا عفس، وعلى كل جسمه، حتى إنه سمع كلاماً يقول "اعفسه على رأسه"، الكلب كان عند خطيبته، أكلت مهلبية أم رز بحليب.

البلد خربَتْ، تجد الأخوة في البيت كل يدير ظهره للآخر، وكأنما لم تنجبهم أمّ واحدة، البعثي يتستّر، والأخونجي يتخفّى، والشيوعي يتمذهب، وكل في فلك يسبحون.

وهكذا تقرّر ليوسـف مدير المدرسـة أن يذهب إليها بشـكل نظامي، خاصـة أنه اكتشـــف بيتاً يتمّ اللقاء فيه، من خلال الحلقة الحزبية التي كان يديرها، ولأن الطلاب كانوا يثقون به ويطمئنون إليه فقد فضـــفضـــوا ما في صـــدورهم، ولأنه يراعي الحلقة الحزبية، ويعامل الرفاق الصغار معاملة خاصة، فقد جمع خمسة منهم، وبعد خطاب فيهم عن الإعداد الوطني وبناء الإنســان، كســب ثقتهم وأعطاهم أوراقاً وأقلاماً، على أن يأخذوا الأقلام هدية، راحوا يكتبون، ماذا يفعلون بعد صلاة العشاء في المسجد القريب من المدرســة، فما إن تنتهي الصـلاة بالســلام عليكم على طرف اليمين والســلام عليكم

على طرف اليسار، حتى يذهبوا إلى دار ابن الأرقم، وهناك يجدون خيرة المدرسين وبينهم أنور الذي جاءني باكياً شاكياً يطلب تدريس ساعات عندي، هذا الابن الشرهة، وهنالك يجتمعون بهم، وأنت أيّها الأخ ماذا فعلت، فيجيبهم الأخ، وعليك أن تفعل كذا، وسننتظر إلى يوم غد، إن شاء الله.

اكتشف الرفيق يوسف المجموعة بكاملها، مَنْ يأتي إليهم، مِنْ أين يأتي، ممن يتكوّنون، أسماء الذين يجتمعون معهم وعمل كل واحد، حلقاتهم، رحلاتهم، كل ذلك عبّأه الرفيق حسّان، وبحسن نيّة أعطاه للفرقة، التي سلمته للشعبة التي سلمته للأمن، وهناك زيارات للإعدادية، ودورية ذاهبة ودورية آتية، واترك الطلاب قليلاً، إلى أن جاءت لحظة، قال: لم نعد نستطيع أن نسيطر على الطلاب، قل لهم ألا يذهبوا إلى المسجد، وأن يقيموا الصلاة، كل واحد في بيته، ولكن والدهم بنى البيت قرب المسجد كي يزيد ثوابه عند الله، قلنا يصلون في البيت يعني في البيت، ألا تفهم علينا..

قلنا للطلاب الحزبيين الصلاة تكون في البيوت، وكل طالب يشاهد في المسجد ستكون عقوبته صارمة، فلم يجاوبوا، بل نكشوا رؤوسهم. فمن جهة حرمناهم من متعة الصلاة في المسجد، ومن جهة أخرى حرمناهم من متعة الكتابة، والأستاذ يوسف ماذا حلّ به، خرج اسمه في الأوكار التي تداهمها الأمن، ويا عيني لم يعد يهنأ له عيش، فمرّة يأتي إلى المدرسة بسيارة، ويخرج منها على دراجة نارية في أي ساعة شاء، ومرّة يأتيها سيراً في الساعة العاشرة، كربج المدير، من هول ما رأى، وكاد أن يجن، رغم أنه لم ير شيئاً، فقد كانت الانفجارات التي تشيب من هولها الولدان تسمع هنا وهناك، ومداهمات أمنية، لكن عنده، أي في منطقته، لم يحصل شيء، فالأمور تمرّ بسلام، يُدخِلُون الطلاب في الثامنة إلا خمس دقائق، ثم يدخل المدرسون إلى حصصهم، زادوا على الشعار الذي كان يردّده الطلاب: "وتسقط عصابة الإخوان المسلمين العميلة".

يكتب المدرسون حكمة اليوم، من زرع حصد، أو رأس الحكمة مخافة الله، أو من سار على الدرب وصل، وتحتها مباشرة عدد الطلاب، وتحتها عدد الغائبين وأسماؤهم. يبدؤون الدرس فيُخرجون الذين لم يكتبوا وظائفهم ويضعونهم خلف الباب مباشرة، وبعدها يخرجون الأقلام الحمراء ويوقعون على الوظيفة، ثم يستمعون

إلى القاعدة وهي غير القاعدة المعروفة في الجيش، هنا في الدرس تعني قاعدة النحو، وبعد ذلك يكتبون على السبورة عنوان الدرس: "الحال"، يكتبون الأمثلة على السبورة، ثم ينزلون منها إلى الطلاب الذين عمى على قلوبهم الكسل، فيضربونهم خمس عصي على الماشي، وبعد ذلك يبدؤون الدرس، إما بإعطائه بالطريقة الاستنتاجية أو بالطريقة الاستقرائية. ولا بدَّ من التلميح بشيء قليل عن العروبة. وعند ذلك يكون المدير دخل إلى المدرسة، وأين يكون؟ يكون عند جارته، فهو يحتج بأن الإخوان المسلمين وراءه، لقد كان يضيّعهم وهناك، حيث الشارع ينعم بالهدوء، والسكون خيمة ينعم فيها بالراحة والتأمل، يشير إلى جارتهم، فتجيبه أن تعال، يخرج على مهل، يراقب الشارع، لا أحد، يجتاز بضع خطوات وتكون قد فتحت له الباب، فينسل إلى الداخل، يشرب معها قهوة الصباح، وما إن ينتهي من شرب القهوة، حتى تبادره باحتساء كأس من الويسكي، تضع له تفاحاً مقشراً، وخياراً وقليلاً من الموالح، ثم يجلسها إلى جانبه، ويحتسي معها الويسكي، لم يسألها عن اسمها ولا من تكون، كان يهمّه فقط أن يمارس معها، يقبلها، ثم يقبلها، ثم وقبل أن ينتهي الكأس، تملؤه مرّة ثانية، ويكون قد خلع ما عليه من ثياب، وتأتي إلى جانبه وقد ارتدت قميص النوم دون غيره، فيخلعها إياه، يجلسان على السرير وتتمنّع، هكذا هي طبيعة الأنثى، ويمسك شفتيها بشفتيه، ويدغدغ لها حلمة الثدي، الذي ينفر من كمائنه وكأنه شيء استيقظ، فيظل عليه حتى يسكره، ويميل على الثاني، فيسكره أيضاً وتكون شفتاه تداعبان شفتيها، يشمشمها، فيتذكر تلك التي كان ينام معها، والتي تضع عطر الياسمين فوق الروائح البشرية وحينذاك يصرخ الديك وتصرخ الأنثى صراخاً غير معقول، ويهمد على جسد الأنثى، لا من يده ولا من رجله، والأنثى أيضاً تهمد، يظلان هكذا فترة قصيرة، ثم يشعل لها سيكارة ولنفسه أيضاً، يشربها بلذة، لأنها انتهكت قراره، لقد فرط الحب من جديد، وها هو الآن يريد الذهاب، ينهض وتظل مسترخية تدخن، يرتدي ثيابه على عجل، وكمن جاء بسرعة، يمضي بسرعة، ينزل بخفة، بعد أن تفتح له الباب، والآن ها هو في الشارع يوقف سيارة لتأخذه إلى المدرسة الإعدادية.

****

أبو ســامي رجل مهذب معي، على الأقل يعاملني معاملة فيها كثير من الوّد، وأشعر أنه يغمرني بهذا الدفء منذ الصباح، وحتى ساعة الانصراف، بل أكثر من ذلك، فنحن أصــبحنا صــديقين خارج أوقات الدوام الرســمي. فقد كنت أزوره، عرفني على زوجته وأولاده وبناته، كان يولم لي من حواضر البيت، وفي بعض الأحيان يضع لي بيضاً وفليفلة وبندورة وملحاً، ونأكل معاً، إلى أن جاءني إحسان، فقلب كياني.

وإحسان هذا صديق ودود لي، زارني في المدرسة، فأعجب بكوني مديراً، وقدر عمري الصغير ومنصب الإدارة، وطرحهما من حجم الإدارة الكبير، فقلت له، نسيت أنني حزبي، فقال: صحيح، هذه لم تخطر على بالي، أخبرني ماذا يفعل أبو سامي عندك، قلت له: جاء ولم يجد مكاناً فآويته عندي، قال: خذ بالك منه، إنه مخبر.

فاضت التأملات بي، وإحســان يحكي لي عن فصــوله التي يفعلها بالمديرين وبالمدرســيين وبالطلاب، ضحكت وقلت: مخبر لأي فرع، يا الله، دعه يعمل... ودعه يعيش.

ودعني إحســان على مهل، ووقفنا عند باب غرفة الآذن، وإذا بهما يعرفان بعضهما جيداً، يسلمان على بعضهما بمودة وألفة، بقي شيء واحد لم أعرفه، وهو من أين إحسان عرف أنه مخبر؟ وقال لـه: دير بالك على المدير يا أبا سامي، فردّ الثاني على عيني ورأسي، أنت والمدير وابتسم.

منذ ذلك الحين أخذت علاقتي مع أبي سامي منحى آخر، كللتها بأن طلبت منه بيتاً، لأن وضعي مع الآنسة امتثال قد بلغ الذروة، فهي تجلس أمامي في النافذة، وطبعاً تجلس المعلمات الأربع، لكن ميزتها، أنها لا تقوم إطلاقاً، لا في الفرصــة ولا في الدرس، وليفعل التلاميذ ما يشاؤون، تضع يدها على خدها وتجلس ساهمة إلى أن يحين موعد الانصراف، فتنصرف بطيئة وحيدة، حتى أصل إليها فتسرع ورائي إلى موقف الباص، لتقف إلى جانبي، فتقف وعيونها شــاخصــة بي إلى أن يأتي الباص، فتركب وأركب وننزل قبل نهاية الخط بموقف، عند ذلك نتدرج إلى الحديقة العامة، ونجلس على كرســي نمســك أيدي بعضــنا، أو تمســك لي يدي، وتتأملني، حرّاً وبرداً، مطراً أو ثلجاً، وهذه الأخيرة غير موجودة، فهي مزحة صغيرة.

المهم يا صـــديقي، نبقى هكذا ســـاعتين، ثم نرحل على أمل اللقاء بها في اليوم التالي، مرّة أنا وهي جلســـنا على الكرســـي، وكان معنا مظلّتان، أنا واحدة وهي واحدة، وجاءنا المطر من القبلة، اندفع حاصباً، فتحنا المظلّتين وجلسنا على طرف الكرسي من الأعلى، كل في يده مظلته، والمطر يسحّ من حوافهما، كانت الأرض وأوراق الأشجار تشبه لوحة فنان من عصـــر النهضـــة، قلت لها أحبك، فأشـــرقت بوجهها، كانت المظلتان تنحرفان عند وجهينا، كنت أشاهد أجمل أنثى على الإطلاق، قالت: وأنا أيضاً.

أنا أحبّ سريعاً، أحبّ الأنثى التي تكون معي، فأجعلها ملكة على عرش الجمال لا يباريها أحد، أجلس في حضـرتها وأشـرب من عينيها سـكراً، أذوب في التفاصـيل التي تلهمنا حياتنا معاً، مرّ شـوقي من هنا، فاسـتبشـرت المرأة خيراً، أمسـكته ولمته وقبلته، قبلته تسعاً وتسعين مرة وأخرى على عجل.

ماذا دهاني أعتقد أنني رحت أنمق الكلمات وأســـتخدم شـــعراً لأمرئ القيس، تسـتطيع أن تقول كنا نجلس على الكرسـي وسـقط مطر غزير، فتحنا المظلتين، تابعنا ابتســـامنا، لم يكن النهار لنا، كنا مثل وردتين تبللتا بالماء، أنا وردة، لســـت وردة إطلاقاً، هنا لم أعد أطيق صـبراً، أبو سـامي هل عندك مفتاح، قال: حاضـر، قلت: مفتاح بيت لآخذ فتاة معي، قال: وهو كذلك، وأخرج من جيبه كومة من المفاتيح، فردها، وأخرج منها مفتاحاً، أفرد ورقة وراح يرســـم لي الخارطة، تدخل من هنا، تصـــل إلى هناك، ثم تصعد الدرج، يوجد ثلاثة أبواب، الباب الذي على ا ليسار، تفتحه، لون خشبه جوزي، تنظر في البيت نظرة سـريعة ثم تخرج، تترك الباب مفتوحاً قليلاً، تذهب وتحضـرها، لا تجعلها تمشي معك، الأفضل أن تأتي وراءك، قد آتي وأرتب موضوع خروجك، لا تخف البيت أمان.

ودخلنا البيت أنا وهي، صـرنا في الداخل، جلسـنا على الأريكة، قالت: ماء، أريد ماء، فأسـرعت أجلب لها الماء، شـربت قليلاً منه، بحثت عن أي مشـروب فلم أجد، قلت في نفسـي، اليوم نمشـيها بدون مشـروب، جئت إلى جانبها، كانت قد خلعت غطاء الرأس وأســـدلت شـــعراً أشـــقر على كتفيها، يتماوج كنهر من عســـل، النهر لا يتماوج، يتماوج كغابة، أيضـاً لا تتماوج، ماذا أصـابني حتى آتي بمثل هذه الصـور، اخلعي هذا المعطف،

قالت: لا، أجلس، فجلســت، أنا أحبك، ولا أســتطيع أن أعيش بدونك، يعلم الله ماذا أصابني البارحة بعد رؤيتك، قلت: ماذا أصابك، قالت: إنها لم تنم الليل، وسهرت تفكر فيّ حتى الصباح، وهي لا تستطيع أن تعيش هكذا، فالآن، وقد جمعتنا المجامع، وصارت مكشــوفة عليّ فالأفضــل أن نتزوج، هنا ضــربتني الناطحة، قلت لها: أنا متزوج، قالت: وإن، في البداية تســعى لطلاق زوجتك منك، وتنتهي أمورك معها، ونتزوج ونبدأ الحياة معاً من جديد. وهنا فتح الباب، وإذا أبو ســامي، يدخل ومعه أكياس، قلت لها: لا بأس إنه الآذن، قالت هذا هو شاهدي الأول، بقي الثاني.

اســتمتعت بمنظر الشــاهد الأول، وكأن في داخل رأســي كتلة من الفحم المشــتعل والتي تحولت إلى جمرة بحاجة إلى من يطفئها، صــب لنا كأســين أبو ســامي، فاللفافات التي كانت معه تبشــر بالخير، لم يفتحها هنا، أخذها إلى المطبخ، قلت لها: ومتى سنتزوج، قالت وقد أمسكت بالكأس، وراحت تحرّك الثلج بإصبعها التي تستخدم للشهادة: الآن إذا لم يكن عندك مانع، ونكتفي بشاهد واحد، نكتفي، ونترك للآخر مكاناً على الورقة نشــهده على الزواج، ومن ســيصــدق هذا الكلام الفارغ، عندك أكثر من مستخدم وكلهم يصدقون.

دخلنا غرفة النوم، وأخذت الكأســين معي مع قليل من المارتديلا، والجبنة وقطع الخيار، كانت واقفة فأجلســتها وهدأت من روعها، وهي قالت لي لا بد أن نتزوج، قلت لها: زواج بدون طلاق كمن يمشــي على النار بلســانين، قالت: وما دخل هذا الكلام بما ســنفعله، قلت لها: يا ســيدتي، يا آنســتي، إن من يريد أن يتزوّج عليه أن يطلق أولاً، ثم قالت: يجوز أنتم يحق لكم أربع نســاء تنكحونهنّ كما تريدون، فعلى هذا أكون الثانية، تفضل.

وكانت قد خلعت الثوب الخارجي والحذاء، وأشــعلت ســيكارة، كانت ترتجف وعصــبيتها ظاهرة، من خلال رقص ركبتها فوق ركبتها الثانية واختلاج الســيكارة بين أصــابعها، أمســكت بيدها، فذابت وأغمي عليها، رشــشــت على وجهها قليلاً من الماء، اســتفاقت، نظرت إلى وجهي، وبكثير من المودة والعتب، عادت فأغمضــت عينيها، كان علي أن أصرخ على أبي سـامي لينقذني، ولكني أثرت التريث، عدت أمسك يديها فأفلتت

عينيها على استرخاء بدون رحمة، ما لبثت أن أخذت السيكارة من يدها وأطفأتها وجعلت أقول لها كلاماً كلّه شعر، إلى أن لانت، أمسكت لها القميص الداخلي وحاولت إزاحته عن مكانه، انزاحت قليلاً، ثم أمسكت بتلابيبه وصرخت ماذا تفعل: لا شيء، ألا تريد أن نتزوج، هكذا يتزوّجون، قلت، اخلعي ثيابك كي أريك كيف يتزوجون، فصمتت عند هذه النقطة، وأنا خلعت ثيابي وألقيت بها على الكرسي، لم يبق سوى ثيابي الداخلية، فخلعت القميص القطني الذي كان أبيض، ورحت أقبلها من شفتها ومن رقبتها ومن يديها وصدرها وظهرها وفخذيها، سال العرق منّا نحن الاثنين، رفعت رأسي فوجدت أبا سامي ينظر إلينا من النافذة التي فوق الباب، غمزت له، فخجل قليلاً وارتد إلى الوراء، لكنني ابتسمت له، ففهم عليَّ، وتقدم بكرسيه إلى الأمام ينظر، وأنا كنت أخلع سروالي الداخلي وكنت أخلع سروالها الداخلي، لم يكن سروالاً كان قطعة صغيرة لا تغطي سوى شق وثقب، يحيط بها حزام بمقدار إصبعين، تناولتها مرّة طويلة، وكان الديك يصيح هو وأبو سامي المشرئب بعنقه ينظر على المدى إلى الجسدين المسفوحين أمام بصره، وفي ذلك اليوم سكت شهرزاد عن الكلام المباح، إن شاء الله عمرها ما سكتت، المهم انتهينا من حكايتنا لهذا اليوم، وإن يوم الغد لناظره قريب.

****

فتحت المدرسة أبوابها، لا يوجد سوى بابين، باب لدخول الطلاب وخروجهم وباب آخر لدخول المدرسين والإداريين وأيضاً لخروجهم، استلمنا النهار بفرحة عذبة، أنا لم أكن قد وصلت إلى الآن، محمود أمين المخبر لم يكن قد وصل أيضاً، أنا للتحفظات الأمنية، ومحمود عرف ما أنا به، صار هو الآخر يتأخر بحجة تأخر المدير ولديه عمل في السوق دائماً، فقد اكتشفنا أنه نحات، فقلنا له يا أستاذ محمود نحن، نقصد المدير ومن يلوذ به نقصد الفرقة الحزبية والشعبة والفرع، نتمنى عليك أن يكون للشهيد البطل الذي تحمل المدرسة اسمه تمثال، فرد الأستاذ محمود، أفكر، فكر على مهلك... وأيّد عملك بدراسات ومخططات وأسعار.

غابت شموس، وحضرت شموس، إلى أن استوى الرفيق محمود، عفواً هو ليس رفيقاً ولكننا هنا، أي في المدرسة، الجميع رفقاء، فجاء وأعلن أنه غداً سيبدأ مشروعه الوطني فأعطيناه سلفة على الحساب، على بركة الله، ابدأ العمل.

بدأ محمود العمل، أغلق على نفسه باب المخبر بعد أن ملأه بلوازم النحت وراح يشتغل، إلى إن كان هذا اليوم، فبينما هو قادم، إذ رأى ثلاثة، واحد يسأل واثنان يتفرجان، واحد على اليمين وواحد على اليسار، يسأل الطلاب عن ماذا؟ يسألهم عن المدير طبعاً.

المدير جاء، واستقبلوه من على الباب الأسود الكبير الذي يرقد بأمان وسلام تحت إعدادية الشهيد فلان الفلاني، قالوا له إنهم يسألون عنك، وقال المدير من؟ قالوا لـه: الإخوان المسلمون. وكان عند المدير عقل وطار ووقف على أعلى الشجرة، ثم بعد ذلك طار نهائياً، ولم نعد نسمع عنه شيئاً. المدير تابع اتصالاته، فوصلوه بالدورية المشتركة التي جاءت بعدد لا بأس به من السيارات، ونزل المسلحون، وانتشروا، فكنت ترى منظراً عجباً، فلا الخيل ولا الليل تعرفني، ولا الرمح ولا القرطاس ولا القلم، انتشلوني من باب الإعدادية، قلت لهم، هذا معي، وأشرت إلى الأستاذ محمود، فأخذونا معهم، ركبت من الأمام ومحمود من الخلف، وأفلتت صافرات الإنذار من كل طرف، عموماً شهدنا على ما رآه محمود، فقد تعرّف على الثلاثة من الصور التي رآها عندهم، وقال الضابط الكبير، لم أعرف لـه رتبة، ولكن واضح أنه كبير، من ثيابه المدنية ومكتبه وأشياء أخرى، يا ابني احرص على نفسك، قلت لـه: هل الأمر خطير إلى هذه الدرجة، قال: إنه خطير، ولكن إلى أي درجة، فنحن لا نعرف. ثم صافحني وأوصى لي باثنين من المرافقة يكونان تحت تصرفي الخاص، وسحبت نفسي سحباً، فمنذ اليوم لا الإعدادية إعداديتي، ولا الدوام دوامي. هذا ما وافانا به كاتب الأحرف، وعلى ذلك نقول وعمر السامعين يطول.

وهنا استيقظت شهرزاد من سبات طويل، فتحت عينيها في البداية ثم شهلت بطولها، كادت أن تقع فعاودت جلوسها، وضعت يدها على رأسها، جاءت أختها فأسندتها ريثما تستطيع أن تقف، ثم مشت بها إلى أن صحت تماماً وقالت لأختها أريد

أن أنام، فقالت أختها وما يضير ذلك، مددتها وأراحتها فاستلقت شهرزاد وكأنما هي تستلقي فوق غيمة ونامت نومة طويلة إلى اليوم التالي بعد الظهر.

****

استيقظت شهرزاد في الساعة الثالثة إلا عشر دقائق، كانت متوعكة قليلاً، ولكن أفضل من يوم أمس، أختها شغلت لها سخان الماء، هكذا طق، فاشتغلت الكهرباء به، وما هي إلا عشر دقائق حتى سخنت الماء فيه، قامت شهرزاد بعد أن تركت ابنها نائماً في سريره، ودخلت الحمام وزبقت أختها معها.

الحمام كان كبيراً بحيث يتسع لعشر نساء ممدّدات، ولكن بما أنه ليس لدى شهرزاد عشر نساء فلم تدخل إليه سوى أختها، خلعتا الثياب ولبستا المآزر التحتانية وأفردتا الصابون المطيب والدريرة والبيلون وجلستا تغتسلان.

قالت شهرزاد انظري يا أختي لقد أصبح لجسدي رائحة من الصعب أن تزول، وأخاف أن يشمها شهريار، فيطلقني ويقتلني، لكن أختها أجابتها: صار لك منه ولد وعليه أن يستحي على شيبته فلا يقوم بتطليقك وقتلك.

وإذا فعلها وقام بتطليقي وقتلي، لمن أترك هذا الصغير.

ليس عليك إنه في أيدٍ أمينة.

تقصدين أنه بأمانتك ورعايتك.

إنه بأمانتي ورعايتي.

سأحكي له اليوم قصة الأخت التي طلقها زوجها وقتلها، وكيف تزوّج الأخت بعد ذلك.

وامصيبتاه، كيف وقعت.

وسأقص عليه كيف أن الأخت كانت تحفر من تحت أختها حتى طلقها زوجها...

اصمتي يا أختي بجاه النبي، وجاه كل من له جاه.

اصمتي، يا أختي الصغيرة، هيا تعالي وأغسلي لي شعري، فإن رائحته قد وصلت إلى أنفي.

قامت أختها وفردت شعر شهرزاد، قالت لها فعلاً إن رائحتك لا يمكن تغطيتها بروائح المسك والعنبر، كنتُ عبارة عن ذبابة صغيرة، فجلست في الزاوية أعبث بيدي وأتفرج على المرأتين وهما تغتسلان، أو واحدة تغسّل الثانية، وحين فردت شعرها سكبت الماء على الشعر، فتساقط جزلاً يغني، كان لون جسدها بياضاً مطعماً بالوردي، كان ظهرها لي، تسفح كمية الماء وترغي الصابون، كنت أشم رائحة الصابون تعبق بأنفي فألوذ بنفسي على نفسي، وأختها تسكب الماء فوق الشعر المليء بالصابون فينزل الماء وقد امتزج بالصابون على الرقبة فيشكل غلالة رقيقة تبدأ بالنزول إلى الظهر فتجري إلى مستقر لها، ثم يبدؤون بإخراج مسدساتهم، تمرّ الدراجة النارية بجانبي، يحمل الثاني الذي يجلس خلف السائق مسدسه ويصوب إلى رأسي، إنه خير من يصيب الهدف، فتتناثر أسناني وأسقط وقد تحول وجهي إلى غربال بسبب طلقاته تلك، يتهتك دماغي، ما أزال أبصرهما، لقد فرّا، ولن يستطيع أحد الإمساك بهما، هل هناك من أحد؟ أرى رجلين شابين يغادران المنطقة، واحد إلى جهة اليمين، وواحد إلى جهة اليسار، الناس مرعوبون وقد تفرقوا أشتاتاً، يسألون ما الذي حصل، ثم يهربون، وأنا وحدي ملقى هنا جثة بدون روح.

ما الذي حصل؟ كنت أتسلى بشهرزاد وأختها فإذا أنا بحادثة اغتيالي، كنت قد تحوّلت إلى ذبابة توجد فوق النفايات وقد وجدت في حمام شهرزاد، رأيتهما وهما تخلعان ثيابهما وترتديان المئزرين، رأيتهما كما لم أرهما من قبل، قبلة على ظهر البنفسج؟ هذا التشبيه لا يلائم الصورة التي رأيتهما فيها، قطعة حرير على ملمس ناعم، حتى ولا هذه، رأيتهما هكذا، امرأتين من حسن وبهاء، عاريتين في نصفهما العلوي، تدلك أسفل ثدييها وما تحتهما، واحدة تغسل الأخرى. أليس أن أكون ذبابة أفضل من أن أكون بشراً سوياً ها أنا لا أستطيع الخروج من المنزل، وإن طرق عليّ أحد باب المنزل، لا أفتح، إذا جاءني عامل المياه أو عامل الكهرباء، مرّة أخي طرق الباب واختبأ في زاويته

فلم أفتح له، الناس كلّهم أعدائي، ولا أستثني أحداً من الموضوع، عندما أعود إلى البيت أقرأ شيئاً من السور القصار حمداً على سلامتي، وعندما أخرج منه، تلزمني سورة الفاتحة، أقرؤها مرات عديدة حتى أجد سيارة، فأصعد بها، ولا أزال أتمم واجباتي الدينية. أقرأ شيئاً من قصار السور، وعيناي تنظر إلى الناس، وهم يمشون، وهم يقفون، وهم يتراجعون وهم يتسوقون، وهم يكفرون، أستغفر الله العظيم، بدأت أكفر، ولكن شيء يجعل العقل كالمجنون، يجعلني أدور في المكان مثل حشرة، مثل ذبابة، تلعب بيديها، تريد أن تنقض، وتطير، تطير إلى آخر حدود المدى. أليست الذبابة أفضل مني؟ تخرج مع طلعة الفجر تفتش عن طعامها، في المزابل والحاويات، عند باعة الحلوى وعند الطباخين، تراها في كل مكان، تجوب الأرض وحدائقها ومسالخها وخاناتها وملاعبها وأطفالها وكبارها ونساءها والعجزة منهم، تقف على الإصبع، وتسن يديها مع بعضهما والرائحة الكريهة، فيهشها عن رجله، ولكنها قد تعود بعد لحظة، يضرب رجله، فتزوغ منه، ما أجملها، هي تتمتع بحرية الانتقال من مكان إلى آخر، تطير، تمشي، تغني، تدب دبيباً، أما أنا فمحاصر هنا، في بيتي، في الثلاث غرف وصالة، مغلق النوافذ على نفسي، مغلق الباب، أنور ترك الساعات في المدرسة، وانضم إليهم، ماذا أكتب؟ هل أكتب إنه انضم إليهم مع مجموعة من المدرسين، كيف سأكتب ذلك؟

الرفيق أمين الفرقة، هل أخاطبه، أم أخاطب أمين الشعبة، أم مسؤول التنظيم؟ لا أعرف.

"تحية عربية،

في إعدادية الشهيد فلان الفلاني، حصلت الحادثة التالية، لا، ليست هكذا، نشطها في وقت آخر، لقد تغيب المكلف أنور الياسين عن المدرسة، وأظنه التحق بالجماعة، هو وثلاثة من المدرسين المكلفين، والخلود لرسالتنا".

لا ليست هكذا، ألن يقولوا لي من أتى به إلى الإعدادية؟ جسمي يذوب، أشعر أن حشرة أو مجموعة من الحشرات تأكله من الداخل، تصوّر أن يكون جسدي فارغاً، جلد فقط من الخارج، ومن الداخل أكلت الحشرات دماغي وأعصابي وعروقي والجهاز التنفسي والجهاز الهضمي، والمؤخرة والغدد اللمفاوية، أنا ظلّ رجل يمشي على الأرض،

لا يمشي على الأرض، هنا في البيت، وزوجتي ما ذنبها؟ إنها تذهب إلى العمل، وتعود منه، لم تعد إلى الآن، أريد أن أسألها ماذا حصل؟ اغتالوا من؟ اصطدموا مع من؟ في أي شارع كانوا اليوم، أريد أن أصرخ، أن أملأ الدنيا صراخاً، عادت زوجتي البارحة، ومعها شريط كاسيت، أعطتني إياه، كان قرعاً على الدفوف وأغاني دينية لفرقة المولد، قلت لها من أعطاك إياه، قالت أمينة المكتبة، ولماذا أخذته، قالت أنت تعرف البلد، وإلى أين تسير، شتمتها، وشتمت أمينة المكتبة، والفرقة، أمسكت بالشريط وكسرته، لم ينكسر، فكررته وجعلت أقطعه، وصرت أصرخ وأقول وأنتِ أيضاً، لم تصب زوجتي بالهلع، باتت تربت على كتفي إلى أن هدأْتُ، فأفهمتني أنها تعطيني إياه لأفهم ماذا يفعلون.

بقي لها نصف ساعة لتصل، ماذا تحمل لي أيضا لهذا اليوم، هل معها منشورات النذير، أو أي منشورات أخرى، عقلي يؤلمني ربما أضعه في كفي وأصرخ، أو أصرخ دون أن أضعه في كفي.

ها هي تفتح الباب، ربمّا معها أخبار مفرحة أو مؤلمة، فالأمر سيّان، لم تعد تفرق معي، حيّتني فرددت التحية، كانت قد جلبت معها خياراً وبندورة، فأخذت منها الكيسين إلى المطبخ، وذهبت إلى غرفة النوم لتبدّل ثيابها، غسلت الخيار والبندورة ونشفتهما، إلى أن جاءتني... قالت: هل تريد أن تعرف من اغتالوا، قلت: لا أريد أن أعرف، لا أريد، ورفعت صوتي قليلاً، بأنني لا أريد، قالت: على كيفك، وتركتني وحيداً مع الصراعات التي تنتابني، أين أذهب؟ لقد طال شعري وأنا لا أستطيع الجلوس عند الحلاق كي أقصه، علي الذهاب إلى المدرسة، وأنا لا أذهب، فلتمطر بطيخاً أحمر، ماذا سيفصلوني، طظ، فليفصلوني، وليأتوا بأشد العقوبات إلي، إنني لا أستطيع أن أنزل إلى السمّان، أو اللحام، أو بائع الخضرة، وشراء ما يلزمنا... صارت زوجتي هي الآمرة والناهية في المنزل، هي زعلت الآن ماذا أفعل لها، دخلت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب عليها، سأدق الباب بحذر، وأفتحه، أنا أعتذر لما بدر مني من حماقة، أرجوك إنني أعتذر إليك، سامحيني، خلص، عفا الله عمّا مضى، حينذاك قلبت العين التي كانت حمراء إلى عين الرضاء، وقامت وصبّت ماء على كل جسدها وعادت إلي، وتوتة توتة، يا

مليحة يا مفلوتة، إنها زوجتي، عيب أن أتكلم عنها، ذاك الذي يمكن أن تصنف به النساء عبارة عن خيال، أما زوجتي فالحديث عنها واقعي، لذلك فالصمت أفضل.

****

قلنا اليوم نذهب إلى الإعدادية، أنزل الدرج، ثم أستقل سيارة توصلني إلى المدرسة، وهكذا كان، وضعت الشماخ فوق رأسي، وأخذت سيارة واتجهت شرقاً، وقبل أن أصل سمعت انفجارات، سألت السائق عنها، فقال إنهم يداهمونهم، ولكن المنطقة قريبة من المدرسة، أعطيته الأجرة بيد مرتعشة ونزلت، لم يكن أحد هنا، كانت الشمس تفرش منديلها على الطريق، غافلتها ودخلت المدرسة بسرعة إلى أبي سامي فالإدارة، فتحت الباب ودلفت إلى الداخل، لم تكن قد فتحت منذ عدّة أيام، جلست على الكرسي، وأخذت أعبث بقرص الهاتف، لو كان عندنا في البيت هاتف لحلت معظم الأمور، كنت اشتريت معظم حاجياتي بواسطة الهاتف، قدّمت لهم طلباً كي يضعوا لي هاتفاً منذ أن سرحت من الجيش، لكنهم إلى الآن لم يوصلوه لي، هكذا... خذ إلى بيت المدير سكراً وشاياً، وبندورة وخياراً، خذ إلى بيت المدير كيلو من اللحم الضان، خذ إلى بيت المدير، لا، لا تأخذ شيئاً، ومن يفتح الباب لهم، هل سأعرف واحداً من آخر، زوجتي تفتح الباب، يا أبا سامي، وأقرع الجرس مرات، إلى أن يأتيني أبو زفت، وبيده فنجاه قهوة وركوة، ويصب الفنجان، ثم يباغتني بالسؤال، هل تعرف مصدر القصف؟ إنهم يداهمون وكراً للإخوان، أقول له: سمعت هذا في السيارة، إنهم يهاجمونه من الساعة الرابعة، يجيب. فأردّ: لا حول ولا قوّة إلا بالله، لقد صار الوضع هنا سيئاً جداً.

صففنا الطلاب، بـ استاعد، واستارح، استاعد، وأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، ورددنا الشعار وأضفنا إليه تسقط عصابة الإخوان المسلمين العميلة، ودخل الطلاب إلى صفوفهم، ولما يزل القصف مستمراً، قلت في نفسي، لأصعد إلى السطح وأرَ، وصرخت على أحد الموجهين، جاء، قلت له: نخرج إلى السطح لنرى أكثر، فقال نخرج، وتمشيت معه إلى السطح، فرأينا عدداً من البيوت ملطخة بالسواد تنهال

عليها القذائف من كل حدب وصوب، قلت: لننزل، ونزلت أتوكأ على نفسي، فرجلاي لم تعودا تحملانني، وما إن وصلت إلى غرفة الإدارة، حتى قلت لأبي عبدو أن يشغل الموتوسيكل، فقال أنا جاهز، وضعت نفسي خلفه وانطلقنا لا نلوي على شيء، أو لا ألوي على شيء، لأن أبا عبدو سيعود إلى الإعدادية.

وعند المساء جاء عنصران من الأمن، فتحت لهم زوجتي الباب، جاءت لتخبرني، لم أصدق أنهما من الأمن، وحين جلبت لي بطاقتيهما، آمنت وخرجت، فأبلغاني بألا أظهر وحيداً في الطرق العامة، وأبلغاني أن اسمي كان موجوداً في الوكر الذي اقتحموه هذا الصباح وأن اسمي كان الثالث، وعرضوا علي صور المقتولين، كان في إحداها أنور، فاستعذت بالله، وواريت نفسي عن الصورة، قالوا هل تعرف أحداً منهم. قلت: لا إنني لا أعرف أحداً منهم. أعادوا النصيحة، وقالوا لي هنا واحد، وهناك واحد، فطأطأت رأسي أمناً وسلاماً، قالا، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وانصرفا.

نظرت إلى زوجتي وزوجتي نظرت إلي، وحملت نفسي إلى غرفة الضيوف ألملم حزني وأفكر ماذا أفعل؟

في اليوم التالي، وما إن ذهبت زوجتي إلى عملها حتى تفتق ذهني عن خطة جهنّمية، فبادرتها، إذ قلعت الكراسي من أماكنها ومددت السجاد، ولم يكن عندنا من السجاد ما يكفي مددت بعض الخرق في الزاوية تماماً، ووضعت على الحائط سيفين، ثبتهما، لبست العباءة وتمسحت المسوح، ولففت رأسي بمنديل أبيض وأخضر، وضعت ما يشبه القامة عند كتفي، ولبست الأبيض، ارتديت العباءة مرّة ثانية، وأخرجت كتباً قديمة كانت لأبي، وضعتها حولي، وأخرجت كرة بللورية وضعتها أمامي، أطفأت الأنوار، وأغلقت النوافذ وجلست أنظر في الكرة البللورية ماذا يحصل الآن؟

****

العالم من فوق خيرٌ من العالم من تحت

ها أنذا أدير المدرسة من فوق، من عالمي الصغير الذي بنيته، أرى أبا سامي يغلق باب الغرفة علي نفسه ويكتب، خطّه رديء، لم يكن جيداً، أقترب أكثر، أدنو، أجد الكلمة الأخيرة التي يكتبها "المآل" إلى جهنم وبئس المصير أراه وهو يغلق الباب بعد أن يطوي الورقة بعناية شديدة ويضعها في جيب الجاكيت الداخلي، يحمل فنجان القهوة والدلة ويرحل، ترى إلى أين يرحل؟ أنا لست في المدرسة، فلمن يأخذه؟ إنه يدخل غرفة الإدارة، لا أحد فيها، يقفل الباب على نفسه، يجلس خلف الطاولة، يصب الفنجان، يحمل الدّلة، ويضعها على طاولة الوسط، ها هو يعود مرّة ثانية، يجلس على الكرسي ويدخّن، أنظر إليه كيف يدخّن، لقد جعل رجليه فوق الطاولة، ووضع الفنجان بين يديه وما زال يدخّن، إنه يدير قرص الهاتف، يتكلم ويضحك أيا أبا سامي، يا حمار الآن فهمت كل شيء.

أترك أبا سامي وأراقب المستخدمين اللذين في غرفة الباحة، ماذا يفعلان؟ إنهما يبيعان للطلاب الأشياء المسموحة والأشياء الممنوعة، إنهما يبيعان السجائر للطلاب، وماذا يوجد في هذه السكائر؟ لا أدري. الطلاب يدخّنون ولا يداومون في الصف، يا إلهي هذا عنده رياضيات، إنه في الثالث خامسة، وهذا عنده عربي، وهو في الثالث ثانية، وذاك عنده قومية إنه في الثالث شعبة رابعة، أنهض وأحضر البرنامج لأرى إن كان كلامي حقيقياً، إنه حقيقي، خاصة بعد أن مددتُ البرنامج أمامي.

صالة التدخين، يا سلام، ومن الذي كتب هذه الجملة هنا، خلف البناء العالي تجد الكلمة مكتوبة، وتحتها طلاب، بعضهم يفترش الأرض، بعضهم يقف، وهؤلاء يقرفصون، وكلهم يدخنون، ويشربون الشاي، ومن أين يأتون بالشاي؟ من المستخدم، سأراه فيما بعد، عددهم لا بأس به، هنا في مسجد المدرسة، الطلاب لا يصلون، ماذا يفعلون، إنهم يتهامسون، هنا ثلاثة طلاب، وهناك اثنان، وهنا أربعة، أنزل من المسجد فأرى غرفة الرياضة، الموجهون يلعبون طاولة البينغ بونغ، اثنان يلعبان والثالث يحسب لهما. هذا الموجه الذي أحضرته من آخر الدنيا يجيد اللعب بطريقة مدهشة،

إنه صديق لأبي سامي، قال لي أبو سامي، أحضره إلى هنا تكسب ثواباً، ثم إنه عضو عامل وأعتقد أنه يفيدكم، فتكلمت بذلك مع مسؤول التربية، خلال أسبوع، صدر قرار بأن يكون موجهاً في الإعدادية، لكنه غير مستقر نفسياً، يثير المشاغب أينما حلّ، إنه يتصارع مع الموجهين الآخرين على أمور تافهة، الأسبوع الماضي، أمسك بإبريق الشاي وضرب به الحائط، ربك حكيم، أن الإبريق كان ساخناً، وإلا لكان أصاب زميله، خرجت إليهما، وصالحتهما مع تبويس شوارب بعضهما.

الطلاب والمدرسون كل في فلك يسبحون المدرّس نائم والطلاب نائمون، أنا قلت في نفسي إن موعد وصول زوجتي قد اقترب، فلأنهِ الموضوع بسرعة، أخفيت البللورة، وبقيت مرتدياً ثيابي، توضأت وصليت الظهيرة، ثم اصطففت مع نفسي وبدأت أردّد: الله الله، لا إله إلا الله، لا الله إلا الله، الله الله، لا إله إلا الله. بدأت الموضوع بإيقاع بطيء، ثم أخذ يصعد، ويصعد إلى أن وصل إلى الذروة. طغى الله على كل شيء كنت أفكر فيه، سيطر على تفكيري، وعلى أناي... الله... الله... لا إله إلا الله... بسرعة أكثر... وبكلمات أكبر، تجلّى الله فسيطر علي وعلى الإعدادية والمدرسين وأبي سامي، والحزب والفرقة والشعبة والفرع والانتخابات والموجهين والمستخدمين، والبيت والخضرة والسمان والحلاق ونفسي، كانت الدائرة تكبر وأنا أصغر إلى أن كبر الحق والسيطرة تمت على أنور والمدرسين الذين كانوا معه والإخوان المسلمين، الله، الله، لا إله إلا الله، يا حقّ، يا قيوم، يا حقّ... يا قيوم... أصبحت الدائرة بيضاء ثم فضية ثم بيضاء، ثم صفراء، ثم زرقاء، ثم فضية، ثم بيضاء، ثم فضية، ثم زرقاء، ثم أغمق قليلاً، وانتهت كحلية، العالم كلّه لونه كحلي ثم رمادي ثم إظلام... لم أعد أرى شيئاً... أصبح العالم لونه أسود...

صحوت من نومي، من موتي، من غيبوبتي، لا أدري ماذا أسميها، كان العرق يتصبب مني، من كل جسدي، وأنا شبه مشلول، حركت ذراعي، لم تتحرك يدي... كفي لم تتحرك، رجلي لم تتحرك، هل أصبت بالشلل، لا شيء فيّ يتحرك غير جفني، ماذا أفعل، اقترب موعد وصول زوجتي، ستأتي بعد قليل وتراني على هذا الشكل،، ستصرخ

وتفتح الباب، الجيران لن يتحركوا من وراء الأبواب، قد يوجد واحد شهم، سيسألها عن سبب صراخها، تجيبه بكلمات غير مفهومة، سيجتمع جاران آخران على صراخها، عند ذلك يعبر الجيران باب البيت، ويرونني على هذا الشكل، إنسان مشلول، لا من يدي ولا من رجلي، أنتظر قليلاً، أعتقد أن إصبع قدمي الكبيرة تتحرك، إنها لكذلك، أحرك أصابع قدمي، أحرك قدمي، وقدمي الثانية، أحرك يدي ويدي الثانية، أحاول القيام فلا أستطيع، أحاول مرة ثانية، فأستطيع، أقف محني الظهر، ثم استوي، ألملم أشيائي، وأخبئها، أطوي الثوب والعباءة والشاشية البيضاء والخضراء، وأخبئها، أجمع السيفين وأخبئهما، أجمع الدفّ والحربة وأخبئهما، أعيد المقاعد إلى مكانها، ها هو الجرس يقرع، وتضع زوجتي المفتاح في القفل وتفتح الباب وتدخل، تقول لي كلمات فلا أفهم منها شيئاً، وأتهاوى على المقعد، تصرخ... غبت عن الوعي.

****

صحوت عند المساء، قالت لي زوجتي، لقد خفت عليك، أصبح لونك أصفر، فمددتك على الأريكة ونمت، تململت أسوّي من جلستي، ساعدتني في ذلك، أشعلي التلفاز، حضري لنا شيئاً نأكله، قالت: نحن بحاجة لطبق بيض، سأنزل وأحضره، تجاهلت الموضوع. عادت إليّ كانت ترتدي التنورة والقميص كان دون أزرار، أو أزراره مفلوتة، زرّت القميص ووضعت شيئاً على رأسها، قلت في نفسي: هل وصلوا إلى زوجتي، وكان الباب يطبق علي.

التلفاز كان يبث نشرة الأخبار، وفي النشرة كان جنودنا البواسل يخوضون مع العدو أشرس المعارك. تدريب حيوي بالذخيرة الحيّة، وفي الخبر الثاني عشرات من جماعة الإخوان يتركون التنظيم وعدد الخبر أسماءهم، وفي الخبر الثالث مداهمة وكر لعصابة الإخوان المسلمين العميلة في حلب مع صور أشلاء لهم، وبعض الأسلحة من بنادق روسية ومسدسات وجوازات سفر وقطع نقود بالدولار.

عادت زوجتي، فوقفت تشـاهد المناظر، فقالت: أطفئه، ما هذه المناظر، فلم أرد عليها، تركتني وذهبت إلى المطبخ كنت أفحص كلماتها، أطفئه، ما هذه المناظر !!، لم تكن تقول مثل هذا الكلام في السـابق، إنها نزلت بغطاء على رأسـها، وهذا سـبب ثان يجعلني أعتقد أنهم وصلوا لها، ثم هناك شـريط الأغاني الدينية وفرقة المولد، كانت في الصباح ترتدي تنورة، والبارحة أيضاً، دعني أحضر ذاكرتي، أيضاً تنورة، صار لها أكثر من أسـبوع ترتدي التنورة ولا أحد يقول لي شـيئاً. أشـرقت الشـمس في عيني، عندما عرفت أنها تخلت عن البنطال إلى التنورة، وها هي الآن تضـع على رأسـها، وتقول بكل صفاقة، سـأضعها منذ اليوم، قد يكونون أرسلوا لها واحدة منهم، زوجتي غير مثقفة، وغير واعية، يعني تنظيمها سـهل، ما رأيك بأمينة المكتبة، ربمّا، تقول ربمّا، وأنا أقول أكيد، إنها تتحجب، من رأسـها إلى أسـفلها، وترتدي الكفوف السـوداء، وهي لا توضح كلامها عندما تريد شـيئاً من رجل، أي أنها لا تسـمع صوتها لأي رجل، ودائماً في الحقيبة موجود أشـرطة كاسـيت، تختلي بالواحدة وبصـمت تعطيه إياه لها، هكذا ضـعيه في حقيبتك، في اليوم التالي، تقول لها هل سـمعته، ما هو رأيك، خذي هذا واحد آخر، للفرقة ذاتها، اسمعيه وغداً لك مفاجأة عندي، إن شاء الله.

أنا مضـطرب، أنا خائف، هل التماسـيح تخاف وتضـطرب، أتمنى أن أكون تمسـاحاً الآن، فجأة أتحول إلى تمسـاح أزحف نحو الغابة وأجد نهراً، مسـتنقعاً، أنزل إليه، جسـمي يشـتعل، أتبرد، أغطس تحت الماء، وألعب وألعب، ثم ألعب، الحياة جميلة، أعتقد ذلك. أتشـقلب على ظهري... أشـم رائحة الإنسـان ربما هو يصـطاد، أو يسـبح، أقترب نحو الرائحة بحذر، لا تظهر سـوى عيني فوق الماء، أقترب أكثر، ألمح شابين، لا... شاب وفتاة يسبحان، أقترب أكثر، الفتاة لحمها أطيب، أغوص تحت الماء، ألمح سـاقيها، بحذر أدنو، بحذر شـديد أقترب، أصـل إليهما، أفتح فمي على اتسـاعه وأغلقه، قطعة السـاق في فمي، الدماء عكرت الرؤيا، صـوت يصـرخ، تجتمع أصـوات، آخذ قطعة السـاق وأمضـي إلى وسـط النهر، أو المسـتنقع، أشـعر بلذة تنتابني، أو قشعريرة فرح تملأ جسدي، أغوص تحت الماء، لا تزال قطعة الساق في فمي، أسبح إلى طرف النهر أو المسـتنقع، كي ألوك قطعة اللحم، الدماء نزحت عنها، تأكل العجة أم

البيض المقلي، السلطة أم الخيار مع اللبن، أمصمص الساق، الأصابع، الرجل، ثم أدفعها إلى فمي، ماذا تريد أن تأكل؟ الركبة، الساق، أهرسها وألوكها وأبتلعها، هل أنا بحاجة إلى فرشاة أسنان، أعتقد أنه يجب علي أن أفتح فمي فتأتي العصافير، وتستخرج بقايا الساق من بين أسناني، أنا ملك على هذا المستنقع أو النهر، على هذه الغابة، كيف وصلوا إليها، هل تأكل العجة أم البيض المقلي؟ العجة أطيب، ولا مانع من السلطة والخيار مع اللبن، بدأت أتحسس منها، قد تنقل أخباري لهم، يعني متى أذهب، متى أعود من الإعدادية، إنها لا تعرف شيئاً، لا متى أذهب ولا متى أعود، ثم إنني لن أذهب، إنني أداوم في الإعدادية من هنا، أدقّ الجرس الساعة الثامنة إلا ربعاً، وخلال ربع الساعة يكون الطلاب في صفوفهم، فتحت زوجتي الباب وقالت: ألم تسمع ماذا تأكل؟ أجبتها لقد سمعت وأجبتك كانت لا تزال تضع الغطاء على رأسها، ولا تزال ترتدي القميص والتنورة، قالت اعتقدت أنك لم تسمع، إنّ إجابتها هذه، فيها نبرة شماتة واستخفاف، ماذا تريدني أن أفعل، اسمي على اللائحة السوداء، الثالث في القائمة، يريدون رأسي الجميل هذا، طاخ طاخ، طاخ، طاخ، عشر رصاصات، ربما خمس، ربما سبع، أو تسع، يفرغونها في رأسي الجميل، فأنهار وأسقط، يتركون واحدة للقلب وربّما اثنتين، تنهمر أسناني، وأسقط على رصيف الشارع، حيث أقف، إنني أراه، إنه يدور بالدراجة النارية ويدخل في الشارع الجانبي، يرتديان أحذية رياضية ويلتحيان، ها هو واحد آخر يمشي في الشارع، إنه الذي أخبرهما عني، يرتدي قميصاً بنياً وبنطالاً أسود، وينتعل خفافة رياضية، أين ذهبت بك ظنونك، هذا ما قالته زوجتي وهي تضع الطعام على الطاولة أكلت بهدوء، زوجتي سمّت باسم الله وأكلت، وضعت قرص العجة على جزء من الخبز، رشت فوقه الكمون والفليفلة الحمراء الناعمة، وأكلت، ثم تناولت بجانبه الخيار مع اللبن، كنت أتناول طعامي وأسرح، انتبهت إلى زوجتي كانت تراقبني، بزيق عينيها، أو هذا ما اعتقدته، قالت زوجتي: الحمد لله ربّ العالمين. قلت: شبعت، قالت: نعم شبعت. ونهضت إلى المطبخ تجهزّ شاياً أو فاكهة، أو شيئاً من هذا القبيل. لماذا لا تضع لي السمّ؟ ربمّا تضعه الآن، قالت زوجتي حين مدّت رأسها: هل تشرب شاياً؟ قلت: لا بأس.

وكنت آكل على أقل من مهلي، جاءت بإبريق الشاي والكاسات، وضعتها جانباً، طوت المنشفة عدّة طيات ووضعتها فوق الإبريق، انتظرتني حتى شبعت، قالت: هل أسكب لك الشاي الآن. قلت: اسكبي لنا الشاي.

رفعت المنشفة عن الإبريق وسكبت لي كأساً من الشاي، معقول أن تسكب السمّ في كأسي، سأبدله لها، هرج ومرج في الشارع، أكيد لقد وصلوا إليها، قالت زوجتي إنهم يزوجون ابنة جيراننا، وقفزت تتفرج، أعتقد أن العرس في وقت مبكر يكون أفضل، سأقلب الكأس في الإبريق وأسكبها مرّة ثانية، يا سلام، أي مفكر يقول هذا؟ سأسمم الإبريق كلّه، وحينذاك سأرتوي من السمّ الذي في الكأس، سأقول لها سقطت ذبابة في الكأس، ولن أشربه، لم لا ألقي به، وهنا توكلت على نفسي، حاملاً كأسي بيدي اليمنى، إلى المطبخ، وسكبته على أرض المجلى وغسلته جيداً ثم عدت ووضعته مكان الكأس الفارغة وصببت في الكأس الفارغة شاياً، حاولت أن أشرب، ارتعبت بداية، وشيئاً فشيئاً شربت، زين زين مكحول العين، الله يساور ودوس دوس وجيه، صلوا على محمد زين زين مكحول العين، وهكذا اختلطت أصوات العرس بأصوات التسمّم، بأصوات زوجتي، بتخيلاتي، لتدق على نشيج وأحد، أعزف عليه باستمرار، دخلت زوجتي قائلة: إنها تمطر، لقد غرقت العروس، دخلت ضاحكة، هل اسكب لك الشاي؟ لا، لا أريد، إذاً فقد صببت السمّ في الإبريق، كنت أسمع صوت حبات المطر، ها هو ينقر فوق الشرفة، يختلط مع زين زين مكحول العين وضحكات زوجتي، لم أشرب إلا نصف الكأس، أخذت تلمّ الصحون من على الطاولة وتأخذها إلى المطبخ، ثم جلبت المسّاحة ومسحت مكانها، تركت إبريق الشاي والكاسات، كأسي نصفها، لم أعد أريد شرب الشاي، صرت أتصبب عرقاً، والعرق البارد ينضح من جسدي، أمسكت بالمنشفة ونشفت وجهي، صوت المطر ينسكب على البلكون، السماء صارت تبرق وترعد، إذا متّ الآن من أين سيأتي الناس في هذا المطر، زوجتي هي التي سوف تتعذب، لا يوجد هاتف عندنا، سترتدي أي شيء وتذهب إلى أهلي، لتقول لهم إنني متّ، ستركض في هذا الجو الماطر العاصف، وسيحضرون، يبكون علي، لا أعتقد أن الجميع يفعل ذلك، سيتقاطرون حتى الصباح، وعند ذلك، سيكون بعضهم اتصل بدفن الموتى الذين قالوا

إنهم سيحضرون بعد قليل، وواحد آخر سيجلب القهوة المرّة وعدتها من شقف وفحم ودلات، أعتقد أنه ابن المختار، هو يفعل ذلك دائماً، وواحد تبرع بشراب السوس، كل ذلك قبل أن يدفنوني.

جاءت دائرة دفن الموتى، يسبقها صوتها، وخلال مدّة قصيرة، أهالوا علي الماء، غسلوني، وبالقماش الخاصة كفنوني، ربطوني من عند الرأس والقدمين، بعض الناس كان يبكي علي، ثم على السيارة حملوني، وصاروا يصيحون على جثتي في الشوارع، الناس يسيرون ورائي بعضهم ماشياً وبعضهم راكباً، حتى المسجد القريب، تركوني حتى موعد الصلاة، صلّوا عليّ، ثم حملوني إلى المقبرة، وهناك فتحوا لي قبر أبي، قرؤوا سورة يس وأنزلوني، وضعوا حول القبر أحجاراً وطينوها، ثم أهالوا حولي التراب، عبدٌ جلس.

ما هذا الكلام الفارغ، أنا ما زلت جالساً هنا، في بيتي، وزوجتي في المطبخ تلملم الصحون، إنني أسمع صوتها، لكنني متعب، متعب حتى الإرهاق، معقول أنها سمعتني، أنا أخرف، حتماً إنني أخرف. وإلا كيف أفكر أنهم اصطادوها، وأفكر أيضاً أنها تضع السمّ لي، بل وأشعر أنني تسمّمت، هذا من الضغط علي، فأنا لم أخرج من البيت منذ مدّة، لا أرى أحداً، لا يزورني أحد على الإطلاق، لا أرى سوى زوجتي، وهي حالما تنتهي من تنظيف الأطباق سوف تذهب إلى النوم، وأبقى حتى ساعة متأخرة من الليل أسهر أنا والتلفاز، بعد ذلك يغلق التلفاز، ماذا أفعل، لا شيء أجلب كتب السحر التي ورثتها عن أبي وأقرأ فيها، القراءة لا تكفي، يجب أن نطبق عملياً، لنر، سأقرأ وأطبق عملياً في هذه الليلة بالذات، وهنا قفلت شهرزاد فمها عن الكلام المباح، قائلة أيها الملك السعيد لا أستطيع الكلام هذه الليلة لقد تعبت.

****

قالت شهرزاد، بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، شاب من الحزب القائد للدولة والمجتمع، كان يعمل بجد وإخلاص، ثم حدثت بلبلة وارتكاب جرائم واغتيالات يندى لها جبين البشر، وصدقني لو كتب على

الحجر ما قرأتها عيون الشجر. أنظر ماذا أخبص، هل تريدهم أن يعتبروني من جماعة المجتمع المدني، يا أخي أنا من أنصــار المجتمع البدوي وهذا الكلام الذي ذكرته ســابقاً غير مســؤول عنه، لا من قريب ولا من بعيد، ســأقول: شــاب أذعر، نشــأ في الشــوارع، صار مديراً، أراد أن يتطور، هيه هيه، ما لنا اليوم وعلم السياسة.

ســأبدأ بهذا الكلام "ثم أمرتهما بالقيام معها وأدخلتهما مقصــورة أخرى مركبة على أربعة أعمدة وهي مفروشــة بأنواع الفرش مزينة بأحســن الزينات، كأنها من قصــور الجنان، اندهشــا مما عاينا من التحف، فبينما هما يتفرجان على هذه الغرائب وإذا بعشــر جوار أقبلن وبينهن«نارية» اســمها «شــمس النهار» كأنهن القمر بين النجوم وهي متوحشــة، تفاضــل شــعرها وعليها لباس أزرق وأزار من الحرير بطراز من الذهب، وفي وسطها حياصة مرصعة بأنواع الجواهر، ولم تزل تتبختر حتى جلست على السرير".

الحمد لله انتهينا من الكلام في الســياســة وشــؤونها، ونامت زوجتي ســائلة إياي، إن كان ثمة واجب تقضــيه إلي، فأجبتها بالنفي، فقالت تصــبح على خير، قلت لها: وأنتِ من أهله. وتابعت من مكاني التفرج على التلفاز على نشرة الأخبار، لم يكن فيها شيء أيضاً. مجموعة جديدة من عصابة الإخوان العميلة تنسحب من التنظيم، هكذا تماماً، وبدأ المذيع يكرّ الأسماء ثم الأخبار المحلية كان من بينها مسيرة جديدة ثم الأخبار العربية ثم العالمية، وما إن انتهت الأخبار، حتى بدأ التلفاز يعرض مســيرة دمشــق، وخرج الناس يهتفون: بالروح بالدم نفديك، كانوا يحملون الرايات واللافتات المكتوب عليها والأعلام بنوعيها والصــور، عالم جميل مليء بالفعاليات المبهجة، انظر إليهم كل منهم يحمل فعاليته ، ويهدج بها، يصرخون ويصرخون ولا يملون من الصراخ هذا يقول: أمة عربية واحدة، وذلك يصــيح عاش عاش، وآخر، يصــرخ بالروح بالدم والمذيع ينقل على الهواء مباشــرة، ويقول ها هي أمة البعث فأين أنتم يا معاقل الرجعية. شــعرت بأن روحي وجســدي قد حصــل معهما إشــباع، وأنهما امتلأا على الأخر، قلبت إلى المحطة الثانية فخرجت جماهير الحسكة في مسيرة حاشدة، تستنكر الأعمال الوحشية، قلبت على الثالثة فخرجت علي الأولى، قلت الحمد لله لدينا فقط محطتان لا ثالث لهما، وهنا أطفأت التلفاز مكتفياً اليوم بما حصّلت من إمتاع عيني بهذه المشاهد.

قبست تحت نافذة الشرفة، كنت قد أطفأت جميع النوافذ، فتحت البلّور قليلاً، ودفعت الأباجور ورحت أتفرّج على المطر وهو ينزل، كان حديقة من الماء، صوته يغسلني من أعلى قمة إلى قدميّ، فأشعر أنني عار وينهمر على جسدي، قمت وتسللت عبر المطبخ، شلحت كل ثيابي أمام الشرفة، فتحت الباب، وبهدوء تقلصت على نفسي وألقيتها إلى المطر ساعة، ساعتان، لا أدري كم استمر الزمن، وأنا ملقى بكاملي عارياً تحت المطر، أذكر ذلك تماماً، لقد طهّرني المطر، طهّرني تماماً.

ها أنذا ادخل البيت، أرتدي ثيابي بعد أن نشّفت جسدي، دخلت الغرفة التي بها التلفاز المطفأ، جلست في زاويتي، رحت أراقب هطول المطر، الذي كان ينسكب في روحي. مدير مدرسة إعدادية، صرصار، لا بل الصرصار أفضل مني، إنه يذهب ويحضر، يشرق ويغرب، أما أنا فإنني ألوذ بالمنزل لا أستطيع الخروج، ماذا لو كسرت ساقي؟ ألن يكون ذلك أفضل، كثيرون كسرت ساقهم، الرفيق فلان الفلاني قال كان يغتسل فوقع فانكسرت عظمة ساقه، فجبرها وقعد عليها، والرفيق فلان، نزل ابنه يوم الجمعة يشتري فولاً، كبسه واحد بحجر فشج رأسه، نزل الوالد الكريم كي يرى ما المشكلة، فأردوه قتيلاً، كانوا يريدون الأب لا الابن، الذي تعزز بروح القدس، ومثل هذه الحوادث كثيرة، لو أنّ أخي يزورني، لو أبي، لو أمي، لو أختي، كلّهم رحلوا عني بسبب هذه الزوجة النائمة قبل الدجاج، كل يوم على هذه الحالة، تأتي من الدوام، تقول أنا متعبة، هل أنت بحاجة إلى شيء، أنا ذاهبة إلى النوم، أنا مالي ومال الإدارة، ألم يكن الريف أفضل لي، سأظل سنتين وأنزل بعدهما إلى المدينة، أنزل لأمارس التدريس، فأنا حققت نفسي بأن تعلمت، أنا من أسرة مكافحة، ليست "مكافحة" هي التعبير المناسب، طيب ما هو المناسب، كلمة "فقيرة"، أيضاً غير مناسبة، إذاً لندمج الكلمتين معاً، أضف إليهما أسرة كبيرة، أبي متزوج من اثنتين، وكل واحدة تجاكر الثانية بنفخ بطنها، وعيب أن تحبل الواحدة وتكون الثانية غير حامل، حتى امتلأ الشارع بالأولاد، والمنزل بالبنات، أبي لم يكن يعمل، في البداية عمل في معمل للقطن، وحين أصيب في يده اليمنى لم يعد يعمل شيئاً، ابتلي أخي الكبير بنصف العائلة والنصف الآخر عاش على ما تقذفه السماء، فما إن رسب أخي في الشهادة حتى ترك المدرسة وصار يشتغل،

ويجلب لأمّه مصــروف الأســبوع، كل يوم ســبت، فقد كان يعطل يوم الأحد، يذهب إلى الحديقة الكبيرة ومعه قليل من البزر أو كثير من البزر، عين الشـمس، يفصـفصـه، ثم يعود إلى البيت مشـــياً، يقطع أوتار الطريق بأغنية "ظلموه". كان همّ أبي يتركز في كيف أرســب واترك المدرســة وأعمل لأجلب لأمي مصــروف البيت، وهو، أي أبي، كان يأخذ الكرسي ويجلس وحيداً، يراقب الطريق العام. وفي الصباح يهندس نفسه، يصرخ على أمي، يريها نفسه قبل الذهاب إلى المقهى، فيأخذ منها النظرة الأولى وينطلق.

في مقهى السـوق، تجد الأصـدقاء والقهوة المرّة والكراسـي المقشـشـة وسجائر اللف والماء البارد بربع ليرة، وأبي نصـف بدوي ونصـف حضـري، وأمي كانت حضـرية، تماماً، فكيف لهما أن يلتقيا.

****

رجل في المدخنة

كان ذلك في العام 1948، إذ قفز خليل مع الذين قفزوا إلى بيوت اليهود تلك التي كانت تسرق في تلك الأيام، فاليهود أخذوا الأرض في فلسطين وطردوا شعبها، وهنا علينا أن نطرد اليهود ونستولي على أملاكهم، سيطرت هذه الفكرة على الغوغاء ومثيري الشغب والقلاقل، فاندفعوا نحو البيوت يتعربشون السلالم ويكسرون الأبواب والنوافذ ليستولوا على ما بداخل هذه البيوت، كان اليهود قد اجتمعوا عند ثلاثة أشخاص من المسلمين أماناً لهم على حياتهم، كانوا قد اجتمعوا في أرض الدار، يقرؤون "قديشا" على سلامة أرواحهم وتركوا البيوت وما فيها للرعاع والهمج وأفاقي الشوارع، وهنا انسل خليل، ابن العشرين عاماً، وملص إلى بيت أحد اليهود، انزلق من وجاق المدخنة، فنزل فيه وتلطخ بالشحّار، برم المنزل باحثاً عن شيء يمكن أن يبيعه فلم يعثر على شيء خفيف وثمنه مرتفع، والشبان حول المنزل يصرخون: تحيا فلسطين، وفلسطين عربية، ظل هكذا زمناً إلى أن هدأت الحركة في الخارج، فأكل من المقددات وفتح زجاجة النبيذ وصبّ له كأساً، كان يفكر إن كان هو صاحب البيت، فأين سيضع هذا الذي غلا ثمنه، جلس على كرسي وراح يستمتع بطعم النبيذ ويفتش بحواسه جميعها، هنا لا يوجد شيء، وهنا لا يوجد شيء، وهنا لا يوجد شيء، قال من الأفضل أن أفتش البيت جميعه، فالليل طويل والرب كريم، بدأ من باب الدار ومال إلى اليسار حوّل القلاطق ثم أعادها إلى مكانها، لا شيء تحتها، والسجاد أيضاً لا شيء تحته، المزهريات، الصور المعلقة، الأحذية، الخزن، لم يعثر على شيء يذكر، ولمّا عجز وقرّر أن يخرج من المكان الذي جاء منه، تعثرت رجله بشيء مدوّر، أمسك به وعاد وأشعل الشمعة، نفض التراب أو السخام عن ذلك الشيء المدور، كان ثقيلاً، فصنع من منديل ربطة، حزم نفسه بها، وصعد شيئاً فشيئاً إلى أن بلغ السطح، خرج مبقعاً بالسخام، فنزل على ماسورة المياه، وقبل أن يصل إلى الأرض، رآه الحارس الليلي، صاح به أن يقف، تسمرّ قليلاً وأخرج الحارس الليلي صفارته وصفر، ولمّا لم يقف فقد أطلق الحارس طلقتين، واحدة أصابته في بطة رجله، والثانية لم تصبه، هرب في شوارع باب

النصر والجديدة، وكان المؤذن قد بدأ بالآذان لصلاة الصبح والناس عندما أفاقوا على صـوت الرصـاص، لم يتجهوا إلى المسـجد، وأعلنوا أن اليوم هو يوم عطلة، فلا مجال لدخول الجنة من أوسـع أبوابها، فاغتسـلوا وصـلوا صـلاة الصـبح في المنزل، وعادوا إلى النوم في أرض الديار، دون أن يلفوا زوجاتهم، لأن النهار قد طلع وها هي الشـمس تنقر أنوفهم، بينما خليل وصـل بعيداً، إلى شـوارع هادئة وأناس لا يزالون يغطون في نومهم، يقرؤون تعويذة مع الملائكة. حين وصـل إلى البيت كان قد ربط رجله التي كان يعرج عليها، أخرج المفتاح الكبير، فتح الباب، كانت أخته تنتظره في أرض الديار، صـاحت بغصـة مقتولة وهي تراه على هذا الشـكل، لكنه أمرها بأن تسـخن الماء له، لأنه يريد أن يغتسل.

الرصـاصـة لم تسـتقر في بطن السـاق، مرّت مرور الكرام، ثقبتها ومضـت، لكنه ربطها بقطعة قماش ممّا كان لديه في بيت اليهود.

ألقى المنديل فظهرت العلبة التنكية المدوّرة، بطول سـاقه، عالجها، كانت ثقيلة، وكادت أن تسـقط إلى الأرض، أخته واقفة تنظر إليه وهي تقرأ سـورة الفاتحة، عالجها مرّة ثانية بواسطة سكين، فانفتحت شيء ما ذو بريق أصفر اختطف بصره، أسرع إلى داخل البيت، تتبعه أخته، وهناك فتح قطعة قماش، وسكب ما بداخل العلبة التنكية المدوّرة، فنزل منها عقود واسـوارات وأقراط وأطواق ملبسـة بالأحمر الرعّاف والأبيض العاجي، لقد اغتنينا، قالها خليل والفرحة عمّت المنزل كادت تخرج إلى الشـارع، لكن خليلاً كتمها وأغلق النوافذ والأبواب.

****

يعيش خليل وأخته فتحية في بيت وقبو، هما اسـتأجرا هذه الدار بعد موت أبيهما مصـاباً بالسـلّ، وأمّهما كانت قد أعطتك عمرها قبل ذلك بسـنتين، ولم يعرف سـبب موتها، ومع موت الأب أخذت الأمور تجري مجرى خاصـاً، فالأعمام أخذوا الطفلة لتربّى

في كنفهم، وخليل سار على الدرب ومن سار على الدرب وصل، ذهب إلى فلسطين ليعمل، فقد سمع أن العمل في حيفا على قفا من يشيل، لكن بعد ستة شهور عاد يجر يدّاً من أمام ويداً من خلف، فقد علقت الحرب بين العرب واليهود، ترك المال الذي جمعه عند اليهودي الذي كان يعمل عنده في البور، وهرب قبل أن تصيبه رصاصة طائشة، غادر فلسطين عائداً إلى أهله وخلانه فلم يجد أحداً سوى أعمامه، فاجتمع بهم، وتقرّر أن يأخذ أخته عنهم، لأنها أصبحت صبية، ولأنهم يخافون على أولادهم منها، يا من سترت لا تفضح.

لسنا بالطويلة، فخليل استأجر هذا البيت، وفرشه بيوم واحد، اشترى حصيرة وفراشاً قطنياً ولحافاً وبرميل ماء وطاسة، وضعها في البيت، ثم جلب أخته لتنام على الفراش وهو يا حبة عيني ينام على الأرض حتى يفرجها الله وقد فرجها الله حين جاء جالباً معه العلبة التنكية المدوّرة وفتحها أمام عيني أخته.

البيت الذي استأجره كان يقع في منطقة يسكنها أخلاط من البدو والأكراد والتركمان والغجر، وعلى أطرافه يسكن نفر قليل من الأرمن، تحيط بالمنطقة مقبرتان، كما تحيط الإسوارة بالمعصم، مقبرة على اليمن ومقبرة على اليسار وشارع في وسطهما، تمشي في الشارع وتعد على اليسار، بيت والثاني والثالث والرابع، وهناك استأجر خليل لأخته فتحية داراً، تتسع لهما وعاشا بأمان.

لم يكن خليل يعمل، وعلى عادة شبان ذلك العصر كان يتسلّى بالوقوف في زاوية الحارة، هو وبعض الشبان الذين من عمره، نظر إليه عبد العزيز الذي كان يجلس على كرسي أمام بيته عدّة مرات فأعجبه، بطوله ورجولته وطريقة تدخينه ووقفته، فرشّ له الذرة، وأقبل عليها ينقرها بنهم.

في البداية دعاه إلى الخمارة، خمارة "أمون"، تواعدا وعند المساء التقيا، وعلى أول طاولة جلسا. وعبد العزيز كان متزوّجاً من امرأة طويلة سمراء، كرت له مباشرة بنتين، جلب معه عبد العزيز بعض المقددات من عند جارهم الياس أبو حبلة، ومدها فوق الطاولة، فرد علبة الدخان أمام خليل، الذي لف سيكارة، وتراجع إلى الخلف قليلاً، أشعلها له عبد العزيز، فقال خليل: من كف لا تعدم، فرّد عبد العزيز: من أخ لا يندم،

ثم صبّ العرق له، وزاده بالماء، فأصبح لونه حليبياً وكسره بالثلج، اشرب حليب السباع، بصحتك، خليل أخذ الكأس ورشف رشفة متمهلة، فهذه ثالث مرّة يشرب فيها العرق، لم يكن يستسيغه، لكنه شربه إكراماً لعبد العزيز ولوجوده في المكان.

تقع خمارة "أمون" عند مفرق الحميدية، وهي عبارة عن دكان مرصوف به طاولات وكراسي، تدخله فتستقبلك خيطان الخرز الملوّن، بأصواتها الذي يدخل الأمان على قلوب المشاهدين، وما إن تدخل المكان حتى تجد الطاولات مع أربعة كراسي لكل طاولة، عد من الواحدة حتى السبع على الجدار، وهناك طاولتان اثنتان على الواجهة، وثلاث طاولات في الوسط، وبار كبير يحتل الجهة الشرقية للذين ينتظرون طاولة كي تصبح خالية ليجلسوا عليها، وكله بالدور، وهناك أبو ميخائيل المعروف بأبي سليم الفحل وزوجته أنطوانيت المعروفة بأم سليم وسليم الذي يدور بين الطاولات يجمع ما يكبّه الناس من نفاياتهم.

عبد العزيز وخليل طابت لهما الجلسة، خاصة وأنهما طلبا زجاجة جديدة من العرق، صبّ منها عبد العزيز إلى نصف الكأس عرقاً، وأتمّ خليل كسرها بالماء، صاح عبد العزيز ثلج، ثلج يا ولد يا سليم، فأسرع سليم ليأخذ السطل الفارغ، يملؤه ثلجاً ويحضره إلى طاولة عبد العزيز، وتكرم عين عمي عبد العزيز، فقد كان عبد العزيز مهيباً على السمعة فقط، وسليم سمع من الناس أنه يجب أن نهابه ونحترمه، وعندما يكون عبد العزيز في الخمارة لا أحد يشاغب، ينتظرون ذهابه لإجراء المشاغبة، وغالباً ما يقوم بذلك نفر من الحَوَش أو واحد يشرب للمرة الأولى، ما علينا، السكرة انتهت، وما على عبد العزيز إلا أن يغسلها بزجاجتين من البيرة المثلجة، وعندما انتهيا من قلبهما توكأا على نفسيهما واندفعا صعوداً في الطريق الضيق الطويل، وقبل أن يحلا في بيتهما، قال عبد العزيز "دع الموضوع سرّاً بيننا"، وودعه وانصرف. كانا يمشيان لام ألف، عبد العزيز دلف إلى البيت، وخليل دلف إلى البيت، أقعى خليل يفرغ معدته ممّا بها، ونهضت أخته تجلب له الماء، وتشطف أرض الديار التي وسخها بالطعام والبيرة والعرق.

نام خليل على جزء من حصيرة في أرض الدار، وجلست أخته عند زاوية الباب تنتظر صحوته ليخبرها أين كان إلى مثل هذه الساعة.

عندما أفاق سـألته الحزينة أين كان البارحة، لكنه شـعر بألم يجتاح رأسـه من الخلف، قال لها إن رأسـي يؤلمني، أعادت السـؤال عليه، فأجابها بأن تدعه وشـأنه، وعندما ألحت، جلب لها الخيزارنة ونام على لحمها ضرباً انفزر لـه اللحم عن العظم، ويا حسرتي لم يكن هناك أحد ليخلصها سوى تعب خليل الذي كان يشبه أغنية مشروخة في جهاز الغرامافون.

في الأيام التاليات صـار خليل زبوناً رسـمياً في خمارة أمون، وحين ذهب مع عبد العزيز وسرقا كبشين، أعطاه نصف أحدهما، وأخذ كبشاً ونصف، لماذا؟ لأنّ الخبرة لها ثمنها، فعبد العزيز ضيع عمره أيام الفرنسيين في الغزو وما شابهه وله خبرة لا يمكن أن تفوت في هذا المجال.

بعد دراسـة الموضـوع انتظرا حلول آخر الشـهر القمري، ولبس عبد العزيز ثياباً لونها سـمني، لا أحد يعرف الحكمة من وراء اختيار اللون، واتجها شـرقاً، تسـتطيع أن تقول إنهما قطعا المدينة ونصفها، وهناك التقى عبد العزيز وخليل بصوت أو اثنين من الخرفان، إذاً فالمكان آمن والخرفان نائمة والحارس نائم، أجلس عبد العزيز خليلاً في مكان قريب واندفع عبر الباب يعالجه ليتسـبّب في طرد الحارس الليل والنهاري من عملهما في اليوم التالي.

سلاحه كان عبارة عن مسدس وضعه تحت إبطه وشبرية في نطاقه، استل الشبرية، ومشى بين الأكباش، التقى أسمنها، وشدّ على فمه بلجام من خيط قنب وحمله وطار به بعيداً إلى أن وصـل إلى حيث خليل، أسـرع وانتقى واحداً آخر وشـدّ على الرحيل، ولما وصل إلى خليل أمره بأن يحمل الكبش وكان هو يحمل كبشـاً وأسـرعا إلى أن وصلا إلى أرض مهجورة، لم تعجبه، فشرق إلى الدهناء، ولمّا تأكدا من أن أحداً لن يراهما، أمسك برقبة الكبش واجتزه بالسكين، وأمسك برقبة الثاني واجتزه، الكبشان فرفرا، ثم أسلما الروح مع شخير قوي ينبعث من كليهما.

حملا الكبشـين المذبوحين والمقطعين إلى الحارة ثم إلى البيت حيث أعطاه عبد العزيز نصـف كبش، أخذه وانسـل إلى داره، وفي تلك اللحظة كان المؤذن يجهر بندائه، الله أكبر.

علّق خليل الشقة في كلابة حبل الغسيل وأحضر سكيناً لتقطيعه، وإذا ذاك أفاقت فتحية لتشاهد الجريمة ساعة وقوع الزلزال.

من أين لك هذا؟

سكت خليل ولم يجب على سؤالها، وحين ألحت، قال من عند عبد العزيز، وحين سالت، ولماذا لم تحضره نهاراً وأحضرته ليلاً، سكت ولم يجب، قالت له إنه سرقة وأقسمت على ذلك، لأن مسموعات عبد العزيز لا تبشر بخير، قالت إنها لن تأكل منه، ولم يجب خليل.

عند ذلك المساء فتح خليل الصرّة حدث ذلك في خمارة "أمون"، وأزاح الورق عن اللحمة، مدها فوق الطاولة وشربا العرق وصاح موالاً سبعاوياً، يتحدث الموال عن الصداقة والصديق الجيد الذي يجب على الإنسان أن يفديه بروحه، وحين انتهى صرخ على سليم أن يأتيهما ببطحة عرق، وحين أسرع سليم بإحضارها، ناوله خليل نصف ليرة بخشيش، قال سليم ليرزقك الله، وضعها في جيبه، ومسح لهما الطاولة مسحاً جيداً، ثم مضى لخدمة طاولة أخرى.

في ذلك اليوم أصبح خليل رفيق درب لعبد العزيز، لا يتخلى عنه أبداً، ما عدا ذلك اليوم حين غزا خليل جماعة اليهود، وسقط وعيّش كثيراً، ووجد نفسه في المنزل وحيداً، استرجع بذاكرته كيف أخذ العلبة التنكية، وكيف طارده الحارس الليلي، وكيف هرب إلى أن وصل إلى البيت، وها هو الذهب أمامه، قال لأخته فتحية أين أخبئه؟ فدارت برأسها، قلبت الفراش، غير مناسب، إنهما لا يملكان غيره، فتفتق ذهنها عن أنها تفتق الفراش وتضع الذهب فيه ثم تخيطه حتى يريا أمراً كان مفعولاً.

كان قد مضى على الحادثة أربعة أيام وعبد العزيز لم ير خلالها خليلاً، في اليوم الأول قال: عسى المانع يكون خيراً، وفي اليوم التالي، قال يأتي لنفسه، وفي اليوم الثالث ضاقت حوصلته فقال: اللهم اجعله خيراً، وفي اليوم الرابع لم يعد يحتمل، فأسرع يقرع الباب، ويصرخ: خليل يا خليل. ونظراً إلى أن رجل خليل كانت زرقاء ومربوطة وإلى أن فتحية فتقت الفراش ووضعت الذهب فيه ثم خاطته من جديد، أضف إلى ذلك أنها

كانت قريبة من باب الدار وقد وضعت الغطاء على رأسها. ولأن خليلاً كان يعرف صوت عبد العزيز، أمرها أن تفتح الباب له.

قالت: تفضّل عمو.

وتفضل العمو، ولكن قشعريرة سرت في دمه لا تبشر بخير، بلمح البصر كان قد رأى عبد العزيز فتحية، رآها وهي تمور بالجمال والفتنة والفرح، فقال ما شاء الله، اعتراه شيء من القلق المبرد بالماء، أيقظ نفسه إلى جزيرة بها عشب أخضر فتمنى أن ينام كل عمره.

أدخل يا عم عبد العزيز.

فدخل عبد العزيز، وأسرعت فتحية تقدم له الكرسي الوحيد الذي لديهم، وضعه متكأ ليده وجلس على الحصيرة، قال له خليل: إن السلم وقع عليه بينما كان يصعد إلى السطح، زانها عبد العزيز، وعن أي شيء كنت تبحث؟ ولماذا أنت طالع على السلم؟ لم يجد إجابة شافية عنده، فسكت، كان يطرق بالأرض وهو يراقب حركات فتحية، من إشعالها البابور، إلى غسيل إبريق الشاي وتلقيمه بالماء والشاي والسكر، كان ينظر إلى يديها ورجليها وهي تعدّ كل ذلك، صبّت له كأساً ولأخيها. فجلس يدرج سيكارة ويضيّف العلبة لخليل كي يدرج له سيكارة، قال له أنا أعزمك اليوم على السكرة، قال خليل: ورجلي، قال عبد العزيز: تحامل على نفسك لن نطيل.

وما إن غطّى الليل السماء ونزل إلى الأرض يشلف عليها رداءه السميك حتى راح خليل يدوس مترفقاً ويأخذ على رجله إلى أن وصل إلى خمارة "أمون"، سلّم على الجميع وجلس على طاولة عبد العزيز الذي سبقه وعمّر الطاولة ووضع عليها الكؤوس الفارغة المبردة، كسر نصية العرق بالإبريق وصبّ لنفسه كأساً، مدّ الشرحات في الخبز ووضع حمض الليمون إلى جانبها، تبّله بالفيلفة والكمون وقليل من الملح، قشر الخيار وقطع البندورة إلى شرائح، وضع صحن الفواكه على طرف الطاولة، التفاح القصيري والدراق والعرموط، وعلى مهله تسلل جالساً عنقود من العنب الشامي.

يا أهلاً وسهلاً بالملك، عليم الله حللت أهلاً ونزلت سهلاً، هات يا ولد كرسي جيد غير هذا الكرسي للملك، أقسم بالله أنت ملك الملوك.

خليل زاغت عيناه للحفاوة البالغة التي غمره بها عبد العزيز، وكلمة منه وكلمة منك، وهات يا سهر وخذ يا كلام، إلى أن قال عبد العزيز:

أختك...

ما بها

أريد أن أخطبها منك على سنة الله ورسوله.

ولكن يا عبد العزيز.

شاورها في الأمر، يعني أتركك إلى ليلة الغد لتأتيني بالخبر اليقين.

وهنا صمت خليل، فالموضوع بحاجة إلى دراسة، وقد فاجأه، ولم يعد يستطيع كلاماً، لقد حاصره تماماً، فصمت طويلاً، درج سيكارة له، ولعبد العزيز سيكارة، شربها دون أن يتكلم مع أحد.

في البيت كان عليه أن يكلم أخته فتحية، لكن مضى الليل حتى نصفه أو أكثر قليلاً ولم يكلمها، ومضى شطر من النهار، ولم يكلمها، وعندما أصبحنا في الظهر، قال لها قولاً كريما. قال لها: إن الذهب بحاجة إلى من يحميه، والحامي هو الله، وإلا سوف يدخلون علينا ويأخذونه، وقال إن أفضل حماية للذهب هو عبد العزيز، لذلك سوف يصاهره كي يحمي نفسه وأخته والذهب من أولاد الحرام، فعليها أن تجهز نفسها لأن اليوم سوف يخبره بأن البنت موافقة، وبعد غد يجهّزها والأربعاء كتب الكتاب والخميس تكون الدخلة، قالت له: أمرك يا أخي... يا حامي عرضي.

وفعلاً تمّ ذلك، فخلال أسبوع تخلص خليل من فتحية وأغلق الباب وتشرّد في البلدان، فلم يعد له هم ولا غم، وترك البقا على من شقا، فمرّة في بيروت ومرّة في الشام ومرّة في دير الزور، يفتح أعمالاً ينهيها بالإفلاس التام، وسبب ذلك هو النساء اللواتي يلتففن عليه، ويمتصصن أمواله، جرب أعمالاً كثيرة انتهت كلها بالفشل، كان يفتح الدكان ويقسمها إلى قسمين: قسم للبيع والشراء، وقسم ينام فيه، ودبّر له غلاماً

يساعده في أموره، فالغلام يبيع وخليل في القسم الداخلي يسكر ويغبّ من سجائر الحشيش وامرأة بين ذراعيه، إلى أن بدأ يحسّ أن أعماله تبوء بالخسران فأغلقها مكتفياً بالتشرد بين البلدان وسرقة ما خف حمله وغلا ثمنه.

أما ما كان من ا لبنت فتحية، فقد جاء عبد العزيز يوم الخميس، ونقلها إلى بيت الزوجية، عبرت شارعاً واحداً بالعرض، ولم يكن معه محتفلون ولا دقاقون ولا مزيكاتية، كان قد اشترى لها فراشاً من الصوف وصندوقاً ومخدة، وفيما بعد اشترى لها لوحة تزينية هي عبارة عن امرأة تائهة في غابة وهي تحمل سطلاً على رأسها به ماء، هذا واضح من الثقل الذي على رأسها، كما اشترى لها ثوبين، واحد للصيف وواحد للشتاء، وحذاء للخروج وآخر يستخدم في البيت، وقال لأهله إنه يريد أن يتزوّج اليوم، فاصعدوا إلى السطح ولا تقلقوا راحته، واشترى لهن نصف كيلو من بزر عين الشمس ليفصفصن ويدعين لـه، كان عنده زوجة وابنتان صغيرتان، واحدة ترضع، وواحدة قد فطمت عن الرضاعة وأمّه التي كانت تسهّل له الأمور بالدعاء السرّي الخفي.

ضرب عبد العزيز صاروخين مع كأس من العرق، وجاءها فرآها فاتنة تبهر الأنظار، وحين اجتازها وجد حقلاً من الألغام، عبره وإذ به ينفجر عن أسى ولوعة وإباء وأجدادٌ مقهورين ينظرون إليه بصمت، لأنهم لم يتذوقوا مثل هذا اللحم الطري الأبيض الهش الناعم، إنه كاللؤلؤ المكنون، وما إن جاء الصباح وأشرق بنوره ولاح إلا وكان عبد العزيز قد أنهى عمله، فقام واغتسل على نية البركة والفأل الحسن. كان قد أخذ زوجته الأولى وسجل الزواج باسم الثانية، سجل لها خمساً وعشرين ليرة سورية مقدماً وخمساً وعشرين ليرة مقبوضة مؤخراً. وهكذا أسدل الستار عن هذه الزيجة، ولله في خلقه شؤون.

في كل مرّة أتكلم عن شهرزاد، وما أصابها في أحلامي التي أحلمها على الورق، أصاب بالنحس فلا يمكنني الكتابة فأتعثر وأخطئ وأشطب وأمحو، وأسب شهرزاد وأمها وأختها والملك شهريار، لذلك يكفيني ما أصابني منها، أقسم بأنها أصبحت الأنثى الوحيدة

التي تشـــغل تفكيري، ولم أعد أفكر إلا بها، فمنذ اليوم لن أنهي وأبتدئ بها، إنها امرأة مخيبة للتفكير وسوف أستغني عنها ولن أعود إليها.

****

سـارت الأمور على أحسـن وجه، كما سـمّاها عبد العزيز، فخليل يسـرق وينهب في المدن وفي السـجون، وفتحية تراغم ضـرّتها بانتفاخ بطنها، فلا تكاد ترى جارتها حبلت حتى تنام مع زوجها فتحبل هي الأخرى، ولأن عبد العزيز كان وحيداً لأمّه، فقد بلغ عدد أولاده حتى عام 1975 ستة عشر ولداً، حرص على تربيتهم أحسن تربية، فقد باع الدار التي سـمّاها صـغيرة، وسـكن في دار كبيرة يصـنع فيها المعجزات، كما يقول، فأمامهم الشارع الترابي كله، يعني لا يوجد سوى دارهم في الشارع، وانتشر الأولاد يتقافزون فيه، بعضهم يخلع سرواله والآخر يبول فيه والفتاة تنتظر أمها التي سوف تأتي من السوق، وتلك التي ضـربها أخوها فجلسـت تبكي وتولول حتى تأتي الأم، وهذا الذي تحفضـه الخالة زوجة الأب، وذاك الذي تلفه العجوز في كارتها، واثنان يلعبان بالتوش، وثلاثة يلعبون في المملكة، ونفر يلعبون على "الصـومنيا". قصـص لا تجارى، والأب مشـغول بمن أين سأطعمهم؟ فبعد أن ضغطت الآلة على يده وتعطلت يده اليسرى، اعتمد على الكرسي يخبره في وحدته بما هو صانع، واستقر رأيه على بيع الحشيش، أو الكيف كما كانوا يسمونه، جلب كفتي ميزان نحاسيتين، كل واحدة بحجم طبق فنجان قهوة، وربط كل واحدة بثلاثة خيوط إلى قضيب نحاسي مثقوب من الوسط، تستطيع أن تقول إنه صنع ميزاناً دقيقاً وبسيطاً، يحقّق كل رغباته المبتورة، يجلس ويضع الليرة الفضية في كفة الميزان ويضع ما يساويها من الحشيش في الكفة الثانية، إذا زاد يقرضها بأسنانه وينقص منها، وإذا نقص يقرض من الكيس قطعة حتى يكتمل الوزن، ثم يأخذ قطعة نايلون ويصـرّها جيداً ليصـنع منها "وزنة"، والوزنة بخمس ليرات، يظل هكذا وحيداً يصنع الوزنات، حتى يصبح لديه خمس وعشرين وزنة، حينذاك يلفّ الميزان ويضعه في قطعة مخملية، ويضـع الكيس والميزان في قطعة أكبر، ثم ينهض ويقف تحت نجفة

البيت فيدفع قطعة الخشــب، تندفع الخشــبة، ويضــع فيها الأشــياء المؤلفة من قطع الحشيش والميزان ويغسل يديه، ويمضي إلى المقهى.

يوم اشــترى الدار من ابراهام، الأرمني العجوز وناوله النقود واســتلم المفتاح، جاء إلى الدار وصــنع هذا المكان المخفي، ســنتها ســتقول الوالدة الحجة، كان والدك لا يعرف أين يضــع النقود، كدنا ننهبل، يضــع النقود الذهبية في طاســة الحمام، لم يكن يهتم بالنقود الورقية، وإلا من أين كنا ســنشــتري هذه الدار، في هذه الســنة كان الجنود الفرنســيون يودعون بفرحة لقاء ذويهم أرض ســورية وهم يقولون إلى غير ما رجعة، بالفرنسية طبعاً، وكان عبد العزيز يغير على ثكناتهم وعلى مستودعات أسلحتهم ويغنم منها الشيء الكثير.

صــنع عبد العزيز عدة أماكن يمكن فيها إخفاء ما يريد، المســدســات والرشــاشــات والحشــيش، فمن اقتلاع الحجر في حائط الجيران وهندســة ما بداخله ثم إعادة الحجر إلى مكانه وتكحيل ما حوله، إلى اقتلاع عدة بلاطات عند باب الدار، أمّا حين فكر في خزان الماء في أن يجعله مخبأ، فهذه حيلة يستحق عليها امتيازاً.

لقد كان في الدار مســتودع ضــخم للماء، عبارة عن مســبح مســتور جزؤه العلوي، وله غطاء بعد باب الدار بمترين، عبد العزيز ســدّ الغطاء بكمية لا بأس بها من الأسمنت، وفتح من الدهليز له باباً، يتسع لإنسان، ووضع سلماً في قلبه، ثم أعاد الباب وزرّقه، ويا دار ما دخلك شر، خاصة أنه جعل لــه فتحات تهوية تدار من أرضه، وتنفذ على الحديقة، ومن المطبخ فتح لـــه ثلاثة أبواب صــغيرة من الحجر على بيت الجيران، وهكذا أصبحت الدار حصينة عن أعين الحكومات، يمكن إدخال سفينة من العسكر المارينز إليها وإخفاؤهم فيها بكامل عتادهم العســكري دون أن يشــعر بهم أحد، وعن إخفاء الرشــاشــات والمســدســات والحشــيش فحدث ولا حرج، ففي إحدى الفتحات يمكنه وضع عشرين مسدسا وعشرة رشاشات وكمية لا بأس بها من الحشيش، ستقول لماذا كل هذه المخابئ، ســيقول لك: الدنيا وأحوالها، ما رأيك بأنه مرّة عندما زارتنا المباحث لم يجدوه في الدار كأنه فصّ ملح وذاب وأقســم إنه كان فيها، وقد كان لزوجته الجديدة التي ما زالت جديدة، رغم انهمار كل هذه الســنين عليها، دور لا يســتهان به،

فعندما دقّوا باب البيت، يريدون الدخول للتفتيش، قالت زوجته الجديدة، "حرام عليكم العجوز أغمي عليها" وعندما فتح لهم الباب، كانت العجوز مرمية على الأرض، كانت تشهق، كمن يستعد لمفارقة الحياة، وهي أي الزوجة الجديدة، أخذت طاسة الماء ورشت وجه العجوز، تستطيع أن تقول إنهم رحلوا بعد أن فركوا أذن الصبي الذي كان يجلس عند درجة البيت مطالبين بأبيه، كما أن الزوجة الجديدة، قالت للعجوز، انهضي وهاتي الذي بصدرك، كانت قد دسّت في صدرها كمية من الحشيش بعد أن أخرجته من قلب الفراش.

قل صارت الدار قبلة للمباحث، فكلما أمسكوا بواحد يدخن حشيشة الكيف، أسرعوا إلى دار عبد العزيز، يطالبون به، إلى أن مشّى نفسه عندهم، يمكن أن تقول أنه وصل إلى رئيسهم، وصار يزوره ويأخذ الهدايا معه، وعندما كان يرد اسمه أمام رئيس المباحث يقول إنه طعم خبيث، والتجار، تجار الكيف كانوا يغبطونه على حسن تصرّفه، وعلى حسن إدارته للأعمال، بل إنه همس في أذن أحدهم، أن يلجأ إلى فتح البلاط وإغلاقه على طريقته، وعندما أخبره بأنه لا يعرف، تعهد عبد العزيز بأن يصنعها له، ولكن اشترط عليه دون أجر لأن أجره يأخذه من عند العزيز الجبار.

وعلى ذلك فقد ذهب إلى عند الأسمر، وقد أخذ عدته معه، كان ذلك في يوم جمعة، والملائكة مجتمعة وقد جلسا في أرض الدار، عبد العزيز فك البلاطة وغرف التراب، ثم وسّع مكانها، ثم أخذ الثانية والثالثة والرابعة وحفر التراب ثم أزاحه من تحتها، وضع جسراً خشبياً أسفل الأربعة، بعد ذلك بدأ يضع الأسمنت والماء والنحاتة، وليّس الأرض، بعد أن أصبحت تتسع لصندوق شاي فارغ ماركة أبو الولد، تركها حتى تنشف وأخذت النجارة طريقها إلى الحفرة، فصنع مستطيلات ومثلثات ترتكز على قاعدة وضع الممنوعات فيها، بعد ذلك ثبت البلاطات ورشها بالأسمنت ثم بالمكنسة أزاحه من فوقها، فأصبحت جاهزة للعمل...

هذا الرجل الأسمر، لنا قصة معه تشيب من هولها الولدان، فمرّة نده علي والدي وقال: احضر أختك وتعال. فأحضرت أختي وجئت، حمّلني أبي حقيبة فيها حشيش، من تلك التي يشترون بها الخضرة، وأنا في الصف الثاني الابتدائي، أمرني أن

أسير وأختي لنوصلها إليه، للأسمر، وسرت أتبع خطوات أبي، ينزل المنخفضات ويطلع المرتفعات، يدخل الزوابيق والحارات فندخل الزوابيق والحارات إلى أن وصلنا إلى باب بيت أسود، ودق دق، لا يوجد أحد، دق دق، مرّة ثانية لا يوجد أحد، ما العمل، خطوتان إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء. كان لا بدّ من عمل أي شيء، فالحشيش في الأرض ولا يوجد أحد في الحارة، قلت لأبي ما هو رأيك أن أصعد إلى السطح وأرميها، قال: بوركت يا فتى، ولم أسمع أبي يتكلم الفصحى إلا في هذا اليوم، ولم أسمعه بعدها.

صعدت على الجدار والباب، وصرت على السطح، أبي ناولني حقيبة الحشيش، فتناولتها وألقيتها في أرض الدار، وعدنا فرحين مسرورين، أنا وأبي وأختي، عدنا والعود أحمد، وعندما وصلت إلى زاوية الحارة نفحنا والدي عشرة قروش لي ومثلها لأختي، قال أوصل أختك إلى البيت، تركنا وانعطف نحو المقهى، ومنذ ذلك اليوم أصبحت رجلاً. لقد كان أبي يضعني في المواقف التي من هذا النوع، ويقول لي أنا أتعامل معك كرجل، ألست رجلاً، فأهزّ رأسي.

كدت أغفو، وربما غفوت، سبحان من لا تأتيه سنة ولا يأخذه نوم وهو العلي العظيم، لماذا لا أصنع فنجان شاي، الليل ما زال في أوله وأنا في منتصفه، أقوم أم أتفرج على الأمطار أقوم ثم أعود للفرجة.

صنعت الشاي، وخمرتها، أحضرتها على صينية مع السكرية والملعقة وفنجان الشاي، صببت، وتركتها برغوة، وجلست أمتع نفسي بهذا المنظر الخاشع، ها هي السماء تبرق، فأزيح وجهي عن النافذة كيلا يروني، وأستغفر الله العظيم، هل جننت، ماذا أصابني، لوجود أسمي في الأوكار، كما يسمونها، يجعل مني إنساناً، يعيش كالقوارض، ولا بأس سألغي صفة إنسان هنا.

****

عاش عبد العزيز حياته على كامل باعه وضراعه، فهو متزوج من اثنتين، واحدة سمراء طويلة ونحيلة وواحدة بيضاء، لا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة، ليست

سـمينة وليسـت ضـعيفة، وأم مربوعة، وإلى نسـبها ينتهي نسـب العشـيرة، وابنتان صـغيرتان، بعمر الزهور، كما يقولون، وبمناسـبة زواج عبد العزيز من فتحية جاكرتها ضرتها وحبلت من زوجها وأنجبت غلاماً ذكراً، سيكون لـه شأن عظيم في المستقبل، لن نتطرق إليه الآن، حرصـاً على سـلامة القراء، ويكفي أن نقول إنه لم يرفع العرق من رأسـه، أضـف إلى ذلك كمية الحب المخدر التي كان يتعاطاها، فقس على ذلك يا رعاك الله.

عبد العزيز كان يأخذنا إلى باب الحديد أنا وأمي، وهو يمشـي أمامنا وأنا وراءه وأمي وراءنا، نمرّ أمام المقهى فندير وجوهنا عكس اتجاه المقهى، ونسـير صـامتين إلى باعة الخضـرة، فتنزل أمي لتنقية الباذنجان والبطاطا والفليفلة والبندورة والبقدونس، ويحاسـب أبي البائع ونعود من طريق الثكنة، وهي غير الطريق التي جئنا منها، فأتجرأ على السير مع أمي لأننا وصلنا إلى المقبرة.

أقرأ الفاتحة على روح جدي، ونمرّ من جانب المخفر الذي شلّحه الناصـريون وأخذوا البواريد والمسـدسات، زمن الانفصال، ولم أعرف سبباً لذلك، إنهم مثل أبي إذ يقوم بتشـليح العسـكر الفرنسـيين أسـلحتهم، هو روى لي ذلك، فمرة أراد أن يجرب مسـدسـاً كان معه، ولأن بيتنا يقع على طرف إحدى المقبرتين، مواجه للثكنتين، وقف خلف شـاهدة القبر، ونشـن، كان ضـابط فرنسـي يركب العربة الحنطور، وضـغط وأطلق، لقد جاءت الرصـاصـة في الضـابط وصـرخ والخيل أجفلت، وصـاحب العربة أجفل، لأن الضابط سقط قتيلاً...

تذكر حين يخبرنا بتسـلّله إلى الثكنة، وكيف كان يرى الفرنسـيين في الهنكار، يضربون على الآلات الكاتبة والناسخة، يسهرون كل الليل، كان ينزل من النافذة ويأخذ الأوراق، يدسّها في عبّه، ثم يبتعد عن الثكنة، ويقوم بحرقها.

سـأروي لك هذه الحادثة، فقد تسـلل إلى الحرس الذي كان يأتي ويروح أمام الباب الرئيسـي، اختبأ حتى يعاينه، وفجأة قفز عليه وأمسـك بالبارودة، ذاك كان سـنغالياً، أبي كان يريد البارودة ولا شـيء غيرها، وذاك لا يريد من أبي أن يأخذها، كان يخاف أن يصرخ، وأبي يعرف مقتله، كان الفزع يرتسم في عيونه، لكنه لم يكن يريد ترك

البارودة، وفجأة أطلق أبي منها رصاصة، فثقب الحامل وثقبت معها يد الجندي، وأخذها أبي، كان ينظر إلى السنغالي الذي كان يمسك بيده ويعوي بصمت.

سأروي هذه الحكاية عنه، ولن يزعل مني، قال: كان في منطقتنا رئيس مخفر شركسي يقال له أبو جمال، كان طويلاً مثل الرمح الرديني، فمرّة كان يسير في أرض حماد، فجأة خرج عليه رجل يعرفه جيداً، أبو جمال أشعل المصباح في وجه القادم الذي هو أبي، فاحتاط للأمر، ومدّ يده إلى وسطه، أبو جمال أطفأ المصباح وكان معه أربعة عناصر، قالوا له: ما الأمر، فقال: لا شيء. وما إن انقضى الخيال حتى ترى أبا جمال قد جلب مجموعة من عناصر الشرطة وانتظره ريثما يخرج من بيت أخته، لأن عبد العزيز ذهب ليسلم أمانة لأخته قبل سفره، فقد كان محكوماً عليه بالإعدام لقتله اثنين من بدو العشائر، أضف إليهما أنه غزا مخفر أبي جمال واستولى على مسدسين من عسكر الدرك الذين كانوا ينامون على سطح المخفر.

قال أبو جمال النصيحة بألف ولو شلفتها شلف، حين ضوّى المصباح في وجهه، هذا هو عبد العزيز، فلنجلب قوة كافية ونكمن له... وجلبنا قوة كافية ووقفنا أمام البيت، ذاك الذي في أعلى القمة وانتظرناه ليخرج، قال عبد العزيز لنفسه، إن ألقيت نفسي من على السطح، فقد تكسر رجلي، عندئذ لن يرحموني فالخروج من الباب أثوب وطعامه أطيب، وزيق... كرّ عبد العزيز أمامهم وضاع بين شواهد المقبرة وخلفه كنت تسمع طلقات الرصاص في الليل البهيم.

وهنا التفت جمال باشا، وهو غير جمال باشا السفاح، إلى عناصره تقريعاً وبهدلة، إذ أفلت منه عبد العزيز مرّة جديدة...

يحكون عنه قصصاً طريفة أيام الفرنسيين، بعضها حصل، وبعضها لم يحصل قصص تروى عن ثكنة طارق بن زياد وثكنة المهلب، وثكنة هنانو، التي أصبح لها الآن أسماء وطنية، فقد كانت قشلة الألمان، وقشلة الأتراك، وهلم جرّاً إذا كانت تجر.

يا سيدي، واستمر معه النضال إلى ما بعد رحيل فرنسا والحكم الوطني، ماذا أروي لك، لقد استمر على ذات الوتيرة يسرق في الليل الذي يكون فيه الشهر محاقاً،

ويصلي الأوقات الخمسة، يشرب الحشيش ليلاً ويصوم نهاراً في رمضان، يخرج إلينا في كل وقت صلاة، فيتوضأ وتكون خصيتاه تلقان بين فخذيه وذكره بين يديه. لأنه لا يلبس تحت القميص الداخلي شيء، وحين نعاتبه أو نلومه، يقول، ليخسأ القائل، كلكم خرجتم منه، فنصمت وهذه أفضل الأشياء التي نفعلها معه.

ماذا لو كان الآن بجانبي، كنت أخذت وأعطيت معه بالحديث، كان سيحكي لي عن تاريخ حياته الذي لخصه بهذه القصص والحكايات، ولكنه سيعيدها مراراً ومراراً إلى يوم يبعثون، سيعيدها ويكزّ على أسنانه ويعض على لسانه، ويقول له سلم البندقية، وذاك خائف ولن يسلم البندقية.

* * * * * * * * * *

استمرت الحياة تجري وتبحث عن مستقرّ لها، وعبد العزيز يبحث عن رزقه في بيوت النّاس، وفتحية عجزت منه، خاصة بعد أن روضها بضربة خنجر في ساعدها، فقد حردت عنه سنة، فمن بيت هذا العم إلى ذاك العم، إليهم جميعاً، والكل ينكرون حضورها إليهم، إلى أن لقيها يوماً عند طلعة الثكنة، هي وامرأة عمها، ابعد المرأة عنها، وجرها إلى البيت قائلاً لها لنذهب إلى البيت، ولمّا استغاثت صفعها بقوة، ثم استل خنجراً وقذفه بها، تلقت الضربة بمعصمها واستجارت الأرض من تحتها تعاتبه، أخذها من يدها غير المصابة إلى داره، وأخذ يعالجها بنفسه إلى أن هدأت واستراحت، ومن يومها عرفت أن الحياة قد رقدت نائمة، فأسدلت ستاراً أسود سميكاً عليها، وبدأت تنجب الأولاد، خاصة بعد أن قبض على أخيها وهو يروج المخدرات، بإمساكه وضبط كمية تقدر بطابتين كبيرتين في حوزته، في ذاك اليوم والأيام التي تليه لم يفصح من أين أحضر المخدرات، رغم القتل والتعذيب، وألقي به في سجن القنيطرة مدة سنة ونصف، كان ذلك أيام عبد الناصر، الذي كنا نراه في السينما قبل الفيلم بعشر دقائق، رأيناه وهو يقف مع العمال وهم يبنون السّد العالي، وقلنا وراءه "يا استعمار بنيناه بأيدينا" ومع المدنيين ومع العسكريين، يقارع الاستعمار، فقلنا له: "لبيك عبد

الناصر"، و "يا هذه الدنيا أطلي وأسمعي، جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي، أنا بالسلاح سوف أرده وبمدفعي، قولوا معي، الله، الله، الله أكبر وأكبر الله فوق كيد المعتدي"...

تذكر غسان كل ذلك عن أمه وطريقة زواجها وأبيه وكيف وصل به الحال إلى ما وصل، كان المطر ينهمر بشجاعة منقطعة النظير، فقد أشرق الصباح بنوره ولاح، وتوقف المطر عن الانهمار، وبدأ إحساس غامر بالغبطة ينتابه، لقد اقترب موعد المدرسة، لن يذهب هذا اليوم أيضاً، ولن تشعر بذلك زوجته، إنها تذهب قبله لأن دوامها يبدأ في السابعة والنصف وهو يبدأ دوامه في الساعة الثامنة، سيعد القهوة لهما، وستشرب القهوة بسرعة، ستقول لم يعد بإمكاني أن أتأخر أكثر من ذلك، بخاطرك، هل أجلب شيئاً معي، وسيقول لها، اجلبي لنا الخضار واللحم، سنطبخ اليوم ماذا؟... أي شيء، أي شيء.

****

فنجان قهوة مقلوب على قفاه

أعددت العدة وأزحت المقاعد من الزاوية، ارتديت العباءة والجلابية وتعممت بالعمامة الخضراء والبيضاء، وفرشت الزاوية ووضعت السيف فوقي تماماً والحربة إلى جانبه، وضعت الدفوف والمزاهر بجانبها على الحائط، أحضرت الكرة الزجاجية، أشعلت البخور، أحضرت جنيين وشيطاناً، طلبت منهما أن ينتظراني لما سأفعله، بدأ الطقس يلمّ بي وذبت في الحالة، فقد نظرت إلى الساعة المعلقة، كانت الثامنة إلا ربعاً... أبدأ، فبدأت.

أعددت كل شيء على أصوله، لقد مددت رجلي على طولهما وجلست متربّعاً، دققت جرس المدرسة، اصطف التلاميذ، أعطيت أمراً بتوقيف المتأخرين على طرف المدرسة، ثم رددنا الشعار، ما زالوا يميلون على طرفهم أثناء تحية العلم.

أولاد الكلبة عموماً ليس الآن وقته، سأفجر الموضوع في أوانه، الآن اتركني فلدي مهام خاصة.

بعد أن أدخلت الطلاب إلى صفوفهم، وقرعت جرس المدرسين، ها أنا أجلس وحيداً مع الجنيين والشيطان، وبدأت ألاعبهما، فمرّة أمسح لها وجوهها بيدي، ومرّة أخرى أنقر لها على بطونها بإصبعي، فتضحك، كنّ صغاراً، من أولئك التي نشتريها من عند أبواب الأسواق، كنت قد اشتريتها منذ مدة، لا أعرف كم هي، وخبأتها في جوال البصل، ووضعتها على الشرفة، والآن أنا أحتاج إليها، فأتسلل وأمدّ لها العصا إلى الكيس، تأتي إلي زحطاً على العصا، فأنقلها إلى هنا، سميت الجني الأول أبو درباس، والجني الثاني قمبوزة، لأنهما أنثى وذكر، أما الشيطان فقد أسميته عليلو، قلت له، ما رأيك أن نزوجهما، فقال كما تريد يا مولاي. قلت: نعقد لهما قراناً خلبياً ونزوجهما، وعليه فلا أحد يأكل ولا أحد يشرب إلا من بيت السلطان، لمدة سبعة أيام.

ودقت الطبول، ونفخت الزمور وقرعت الصنوج وضربت الدفوف، وفاحت رائحة البخور والمسك والعنبر، أمسكت بيد أبي درباس ويد قمبوزة، وكان الشيطان عليلو خلفنا، صرنا نطوف في البيت ونهلل ونصرخ ونغني، إلى أن هدني التعب، فجلست

وعقدت قران الجنيين: وقبلت بالزواج منه، وقبلت بالزواج منها، وشهد الشيطان عليلو على ذلك ووضعت ختم المدرسة، وبعد ذلك وقّعت، ولم أزل أحتفظ بالورقة عندي في سجل أوراقي الرسمية.

بعد ذلك أشعلنا النار، فأنت في ديار بني عبس، وزففتهما، بعد أن ارتديا أجمل الثياب وتعطرا بأفضل العطور، كانا مثالين للجمال والأناقة، إنهما نسخة من نسخ بيير كاردان، هكذا يا سيدي، فقد استمر العزف والغناء لمدة ساعة أو أكثر، وقد دققت الجرس للمدرسة، وخرج الطلاب، ولعبوا وأكلوا وشربوا، كنت أراقب الاثنين معاً، الطلاب من طرف، بواسطة الكرة الزجاجية، والجنيين من طرف آخر، دققت الجرس مرّة أخرى فتسحسل الطلاب يمشون على مهل، ويصعدون الدرج، بعد أن فرغوا سوائلهم، وملؤوا غيرها، دخلوا إلى الصفوف وهم يمسكون بأيدي بعضهم، أخرج المناوب يكتب الأسماء على ورقة صغيرة، أسماء المشاغبين والمعجزين حتى يسلمها للموجّه، والموجّه كان يمر على الممر، ثم يدخل إلى الصفوف، يمسك الورقة ويصرخ على الطلاب المعجزين والمشاغبين، فيسلخ جلدهم، بحيث لا يبقى عند الطلاب سوى العظام، أما أنا فقد دققت جرس المدرسين الذين راحوا يتكلمون بعضهم مع بعض، وكل واحد أمسك له واحداً يجره بهدوء، ويسحب كلماته من صدره سحباً، كنت أراقبهم بواسطة الكرة الزجاجية، وأعرف كل واحد وأفعاله، حتى إن أستاذ العربي كان يجهض الروح، هذا هو مع أستاذ الفيزياء، إنهما يأتيان ويروحان، كأنما قضية تثار بينهما، ما علينا سوف ينتهي هذا الوضع ونتواجه.

أنا قلت أزفهما الآن، وفعلاً كتبت كتاباً لهما وبنيت خيمة لهما عند مضارب بني عبس وفرشت لهما سريراً كي يمارسا عليه الجنس، ودقي دقي يا ربابة، ودقّت الربابة، فأمسكت يد بعضهما وأدخلتهما إلى المخدع الذي سوف يأويان إليه.

الذي سوّى المخدع، ترك سقفه مفتوحاً إليّ، ورحت أتأمل الجميلين من الأعلى، أنا والشيطان، هما صغيران أيضاً، بحجم شبر واحد لكل منهما، كانا أبيضين تماماً عليهما ثوبان أسودان، جلس الجني الأول أبو درباس إلى جانب الجنية قمبوزة وأخرج من تحت السرير نصف براندي، كما أخرج بقية العدة، من كأسين ونقول ممتازة، فصبّ

الكأسين، وشرب بصحتها، وهي شربت بصحته، أنا كنت أعاينه من الأعلى، قلب كأسه على آخره، بينما هي لم تنه كأسها بعد، صبّ الكأس الثانية، وامتدت يده تداعب رقبتها وشعرها، وهي استرخت له تماماً، فبدأ يشلحها ثوبها، وسرعان ما تركها، قلب الكأس على آخره، وصب كأساً أخرى، وبدأ يخلع ثيابه، خلعها جميعها حتى صار عارياً، بينما هي لم تخلع ثوبها، فما كان منه إلا أن هوى على خدها بصفعة، فتهاوت تستجير. وسقطت على الأرض، أمسك بها وشلحها ثوبها وسروالها، فلم تكن ترتدي غيرهما أمسك بها وقذفها إلى السرير، ففحت تريد اللذة، وأقبل عليها يشمّها، يشم كل طرف منها ويقول، أبوس روحك، أنتِ سوف تمتعيني الليلة، يا أجمل جنية في العالم، وأخرج شيئاً صغيراً، راح يدخله في وسطها إلى أن شهقت وصارت ترتجف وتشنجت كلها، صارت تعوي بصوت رهيب وتصرخ، حتى ملأ صراخها قبيلة عبس التي كانت تستعد للحرب مع قبيلة هوازن، وعندما سمعت الصوت أدركت أن أمراً عجيباً قد حصل، فلمت سيوفها وجمعت رماحها ونبالها، وظنت أن قبيلة هوازن قد هاجمتها، فهربت تتحصن بالمغارات القريبة.

الجني أبو درباس تراخى كل جسده، بينما الجنية قمبوزة أشعلت سيكارة لا أدري من أين حصلت عليها، أعطته فغب غبتين، قل ثلاثاً، دفعها جميعها إلى صدره، وخرجت من فمه وأنفه على دفعات متتالية، أنهت السيكارة بسرعة، وجلست تنظر إليه، تهالك على نفسه وراح يقبلها، ثم يشمها، ثم يعضها بشفتيه، وهي كانت بلغت حدّا من النشوة لا يطاق، وهنا وصلت شهرزاد إلى ليلها: فقالت... رجعنا إلى شهرزاد وأختها والملك شهريار، يا أخي عليم الله أنا مللتها فلماذا كلما ضاقت بي الأحوال أعود إليها. ما علينا، نبدأ منذ أن انتهينا.

يا سادة يا كرام: إنه لمّا وقف عنترة والرمح بيده، وهو راكب على الأبجر وقبيلة عبس كلها وراءه، صرخ صرخته المعهودة، فتهاوت الجبال، ورددتها السهول والأودية. رجعنا على عنترة، نخلص من قصة شعبية لندخل في قصة شعبية، أنا أفعل ذلك كي أتخلص من الحالة التي أنا فيها، أنا لا أحبذ ذكرى الإخوان، معي مسدس، ماذا يمكن أن يفعل لي هذا المسدس؟ إنه يضرّ ولا ينفع، افرض أنني نزلت إلى الشارع، وافرض أنني

ذهبت إلى المدرسـة، وعند الانصـراف، اقترب واحد منهم، وأطلق النار على رأسـي، أكون قد ضـعت، وافرض هذا، عند ذاك ماذا سـينفعني المسـدس، لن يترحموا عليك، ولن يخرجوا في جنازتك، كل ما سـيفعلونه، سـيقولون، ها هو واحد منهم قد انتهينا منه، والذين معي سـيخافون أكثر، من معي؟ البعثيون، الدّرة المكنونة عن العين مصـونة، ترى ماذا حلّ بالانتخابات الحزبية، لم أعد أعرف، فأنا لم أر بعثياً، منذ يوم الاجتماع الأخير في مركز التدريب المهني، حينذاك وقف الرفيق زهير مشـارقة، وقال بأعلى صوته، كلهم أربعة جرذان، هكذا بالحرف الواحد، ألم تنتهوا منهم، انظروا إلى هذه القاعة، كانت القاعة كبيرة جداً، وقال هذه القاعة تضم مئات الأعضاء العاملين، أنا أستغرب، هو يستغرب، كيف لم تنتهوا منهم، وقد صـفق الجمهور كثيراً لنائب رئيس الجمهورية، الذي زاده التصـفيق طغياناً على طغيان، وقد طلب الرفيق زهير مشـارقة، نائب رئيس الجمهورية أن نبلغ بقية الرفاق بأننا سنضرب بيد من حديد على مركز الشر، وسنجتث عصابة الأخوان العميلة، فصفقنا فرحاً وطرباً، وفي اليوم التالي أسمعوه من هي عصابة الأخوان المسلمين العميلة.

فقد توزع الأخوان في كل أنحاء المدينة، وبدؤوا أعمال العنف من اغتيال وجمع تبرعات، فقد كان الواحد يأتي إلى الأسـواق، وهو يربط حزاماً ناسـفاً، يريه للناس، ويطالبهم بجمع التبرعات، ويمر الثاني ويلم النقود.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، عباد الله، أما بعد...

فقد سـرّحت من الجيش، وتزوّجت، كانت الدنيا تسـير بخير وانشـراح، يومها قلت في نفسـي بأني لن أسـلم وصـل العضـوية العاملة، لكنني سـلّمته، لماذا؟ لأنني انتهازي وواطئ وعميل للسـلطة، هكذا سـلمته إلى الرفيق رئيس مكتب التربية، فجاوبني خيراً فعلت، وانتظرت تعييني وخرج تعيين المديرية وإذ أنا مدير لقرية أنموذجية بثلاثة صـفوف، وهي قرية قريبة، هذا كان تعيين المفتش الاختصـاصـي، أخبرت الرفيق رئيس مكتب التربية، فقال: لا عليك دعهم يفعلون ما يريدون، وأنا تركتهم يفعلون ما يريدون، إلى أن صار الدوام فلبست ثيابي وغادرت إلى أقرب سـرفيس، وهوب، ها هو السـرفيس قادم فقفزت إليه، واستمتعت بعذوبة المكان وبرائحة الأشجار، فأنا لم أر شجراً كثيفاً

منذ زمان، ها هو الأخضـر يملأ المكان، يسـوّره كمعصـم اليد، ينعش الفؤاد ويجعله يبتسم.

ما هي إلا دقائق إلا وكنت في باب المدرسـة، وجدت شـخصاً يجلس في مكاني، قلت له عن اسـمي فرّحب بي وكاد أن يجلسـني مكانه، قال لي بالحرف الواحد، ويبدو لي أنه عرف أنني أملك بيضاً ثقيلاً، مكانك ليس هنا، وأخرج ورقة من الكارتابل، فيها جمّ غفير من الأسماء، تفضل يا سيد فلان الفلاني، أخذت الورقة ورأيت اسمي، وقد خط تحته بالقلم الأزرق. فلان الفلاني من مدرسة كذا إلى مدرسة كذا مديراً للإعدادية.

الحقيقـة شـعرت بقليل من الفخر والاعتزاز، منها أنـا مدير لإحدى إعداديات المدينة، التي تكثر فيها الصفوف بينما هنا ثلاث شعب فقط. صب لي كأساً من الشاي، شربتها بسرعة، واستأذنت أريد الرحيل، قال لي المدير الجديد، اشرب كأساً ثانية، قلت: خيرها بغيرها. وشـمعت الخيط أريد المدينة، وقفت على الطريق العام، فتهادت إلي سيارة كبيرة من تلك التي تعمل بين القرى، ركبتها... وراحت تودع الخضـرة إلى الأبد فلم أعد أرى الأشجار وظلالها وعلوها المتسـامق، راح ذلك كله عن بصـري ودخلت المدينة لتقابلني البنايات المتراصـة بدكاكينها وشـرفاتها وعلوّها ومداخنها وأنتينات تلفيزيوناتها اللواتي يميل بعضها إلى كل اتجاه، شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً.

أخذت السـرفيس مرة أخرى إلى شـارع المدرسـة، نزلت منه، تمشـيت قليلاً، ها هي المدرسـة، بصفوفها الأربعة والعشـرين، ومدرسيها السبعين، وموجهيها الخمسـة، وأمين مكتبتها، وأمين المخبر، وآذنيها الأربعة، لم يكن ينقصـهم إلا المدير، وها أنا قد حضـرت إليهم، فأقيموا الأفراح وانفخوا الزمور، ها هو واحد منّا يصـبح مديراً فابتسـمي يا حقول، واضحكي يا سنابل، ها نحن نعبر إلى البرزخ الآخر فرحين مسرورين.

حين صـرت مديراً بدأت ألعب بهذه التي يسـمونها سياسـة، كنا نزحلق بعضـنا كي يقع واحد

منّا، فندفشـه ليحلّ آخر وهكذا. تسـتمر اللعبة وأتحول إلى نجم له أثره في الانتخابات الحزبية وما يليها من انتخابات الفرقة والشـعبة والفرع، وأصـبح لي الدور الفاعل

والفعّال في كل هذه الإجراءات، إلى أن صار الناس يحسدونني على ما تفضلت به، لولا هذا الحزب لكنت اليوم خلف هذه الجدران السميكة.

مالنا ولهذا الكلام، فلأقم إلى المطبخ وأصنع فنجان قهوة، لا أنا آخذها دون سكر، وإلا فلماذا أسموها قهوة، السكر يوضع للشاي فقط، عدت بفنجان القهوة، نسيت أن أصنع ثلاثة فناجين للجنيين والشيطان، قلت دعهم إنهم لا يشربون القهوة، هذا رغم أن الشيطان كان ينظر إلي بطرف عينه، لم أكمل الفنجان حتى قمت وصنعت واحداً آخر له، وتحججت للجنيين بأن البن نفد من عندنا، فعليهما إن كانا يريدان أن يشربا القهوة أن يجلبا البن، فصمتا، ونظرا إلى بعضهما نظرة فيها معانٍ كثيرة.

ما إن اقترب موعد زوجتي حتى باشرت أخفي الأشياء التي مددتها، وأخفي الجنيين والشيطان، فقد وضعت لهم أسفل الفرن قطنا وجعلتهم ينامون، طالباً منهم عدم الإزعاج كي لا تشعر بهم زوجتي، التي فتحت الباب ورأتني كما لم ترني من قبل، جالساً في غرفة الضيوف وأمامي فنجان قهوة مقلوب على قفاه، قالت زوجتي، خير يا طير أراك مبكراً، يظهر أنك لم تذهب اليوم إلى المدرسة، قلت لها: لا لقد ذهبت وعدت مبكراً، قالت وماذا رأيت؟ تلعثمت في الإجابة، وقلت بأنني لم أر شيئاً، أخذت سيارة وعدت، قالت وقد أمسكت بالفنجان المقلوب على قفاه، وتبصّر في القهوة، يا ملعون، قل لي، ماذا تريد أن تعرف، عن المستقبل! وهنا ضحكت بعنف وكراهية، قلت: اتركينا من هذه السيرة، داخل عليك، قلّبت الفنجان عدّة مرات بين أصابعها، وقالت: توجد سمكة رزق، وطريق طويل، يظهر أنك ستسافر سفرة طويلة، قلت لها من غير رجعة، قالت: وأنا، قلت تكونين معي، قالت: نسيت أن أقول لك لقد ملؤوا الطرقات بالحواجز الأمنية والعسكر، قلت إيه لقد رأيت كل ذلك، فلم تعلق على ردّي، وتابعت، لأنها كانت تعرف أنني لم أذهب إلى المدرسة اليوم أيضاً، قالت لقد وضعوا حاجزاً في كل شارع والحاجز وراءه مصفحتان واحدة على يمين الشارع والأخرى على يساره، والمصفحتان مليئتان بالجنود، والجنود بكامل أسلحتهم، قلت لها، لقد رأيت، لقد رأيت.

قالت، وكانت يدها ممسكة بالفنجان وكأنما تريد أن تغسله، وهناك جنود بالذي يفتح، موجودون عند كل حاجز يلبسون ثياباً ملونة، قلت لها: مموّهة يا بني آدم، قالت: مموّهة إنهم يملؤون كل مكان، ألم ترهم؟

فغمغت الموضوع، وهي انسحبت تغسل الفنجان، فجلست متكوماً في حيرتي، وضارباً سيف الأمل فوق رأسي.

ذهبت إلى المطبخ كانت زوجتي تجهز الفول للغداء، الفول الأخضر، فتضع جرزة منه بين أصابعها ثم تضعه على كرسي الفرم وتفرمه.

قلت: ها نحن سنأكل فولاً أخضر اليوم.

قالت: ولكنه بحاجة إلى اللبن، نسيت أن أجلب لبناً معي.

قلت: طبقي الفول وانزلي وأحضري اللبن.

قالت: حاضر، حاضر.

قلت: أظن أنه بحاجة إلى الثوم والكزبرة.

قالت: أظن ذلك، فالفول لا يأتي طعمه إلا بالثوم والكزبرة.

أنهت زوجتي عملية الفرم، وبدأت بغسل الفول بالماء وكانت الفيجة تصبّ زيادة على اللزوم، فهدأت الفيجة، فما كان منها إلا أن قوّتها، كأنما تريد الانتقام.

قلت لها: الماء يهدر وهذا حرام.

قالت: بالستعش جارفة جهنم، يا أنت في المطبخ، يا أنا، أف...

قلت لها: لا أنت في المطبخ، وهل لنا إلا أن نسترضيك؟

قالت: أتفضّل أخرج من المطبخ.

ولكنني قبل أن أخرج، هدأ الماء المنسكب من الفيجة، وخرجت، وهنا ثارت ثائرتها، فلم تترك شيئاً جالساً إلا وأوقفته، أو شيئاً قائماً إلا وأقعدته، كانت تسب وتحشك على الذي بلاها هذه البلوة، وعمره ما حدا يأكل، أنا ذهبت إلى السوق واشتريت طعاماً بعد دوامي لألاقي هذا، يقرف عمري على هذه العيشة، ولك الكلاب عايشة أفضل مني، اتفو على هذه الحياة والذي فيها.

وأنا من طرفي شـــددت الحبل على آخره، قلت: وما بها هذه الحياة التي تعيشـــينها أليسـت أفضـل من تلك التي كنت تعيشـينها عند والديك، قالت: لا تجيب سـيرة والدي على لســانك، قلت: أختك على أخت والديك، أنت لا تســتحقين الرحمة، أنت عديمة الإنسـانية، أنت عديمة الشـفقة، قالت: أنا عديمة الإنسـانية يا سـافل يا منحط، قلت: أنا ســافل ومنحط، أنت الســافلة والمنحطة، وأمســكت بالفول أورّه في أرجاء المنزل هو والطنجرة التي كان فيها.

****

مرّ أخي علي، أرســلت أمي الخبز معـه، أعطيتـه مبلغاً من النقود وأمرتـه أن يشـتري عرقاً ويجلب معه قليلاً من الفسـتق والبزر وعلبتي طون، أخي كان صـغيراً، قلت لـــه: مثل الطير اذهب واجلب هذه الأشياء واحضر بسرعة، من عند الأرمني كيفورك، الذي يقع محله آخر الشــارع، على اليمين، قبل مطعم البرج، هيا يا ســبع أحضــرها وخرجيتك محفوظة، فذهب أخي الصــغير، وانتظرت على نار خامدة، يعني لها جمر، وهو مغطى بطبقة حماية.

طال الانتظار، وزوجتي سألتني، إن كنت أرسلت الصغير ليجلب لي سمّاً هارياً، فلم أرد عليها، خاصـة وأنها تريد مصـالحتي، أخذت الخبز وفتحته وقسـمته، كل رغيف إلى أربعة أقســام. وأنا ما زلت أمام الباب أروح وأجيء، كأنما ثعبان في داخلي، قالت: هل أصـنع لك شـيئاً تأكله مع السـمّ الهاري، فلم أجب أيضـاً، وسـمعت صـوت أقدام على الدرج فتفاءلت خيراً، وحين وصــلت الأقدام إلى أمام الباب وتوقفت، طرق الباب ثلاث مرات، أمرت زوجتي بـأن تفتح البـاب، ووقفـت ملقماً المســـدس بجـانـب بيـت الأدب، وحينما تبيّنت أن الواصل هو أخي الصغير، خبأت المسدس في جيب البيجاما، قلت له، لماذا تأخرت، فشرح لي، وأطال بالشرح، فنقدته الخرجية وذهب لا يلوي على شيء، وإن لوى على شيء فسـوف أؤدّبه بالعصـا، أخذت الأغراض إلى المطبخ، قالت زوجتي مكررة، هل أحضـر لك العشــاء، لم أرد عليها، وذهبت إلى غرفة الضـيوف التي صــارت غرفتي، باعتبار لا ضيوف عندنا ولا من يحزنون، التلفاز كان ينير الغرفة، بينما الأنوار مطفأة، وجلســت أســهر، ولا أعدّ النجوم، وبعد قليل جاءتني زوجتي بالطبق المعبأ بصـحـون المازة، فشـعرت بالسـعادة تغمرني من أسـفل قدمي حتى قمة رأسـي، قالت لي: اصـرخ لي إن احتجت أي شــيء، فلم أجبها، قالت: هيا قبلني قبل أن أذهب إلى النوم، هيا، هيا، فقبلتها قبلة هادئة، وذهبت إلى النوم، لأنها متعبة، أو أنها تظاهرت بذلك.

أمســكت الكأس وصــببت عرقاً إلى نصــفه وكســرته بالماء، ليتحول إلى لون حليبي، وضـعته جانباً ونظرت إلى طبق المازوات، فانشـرحت نفسـي، ها هي علبة الطون قد فتحت ووضـعت فوقها الفليفلة على شـكل إشـارة ضـرب، طبعاً بعد أن صـفي زيتها، ووضـع لها زيت زيتون نقي من عندنا، وإلى جانبها مخلل الخيار، وقد قطع حزوزاً ووضـع

لــه الكمون والفيلفلة والزيت، إلى جانب البندورة المقطعة بعناية، وإلى جانبهما السودة المقلية، والبيض المسلوق والمقطع هو الأخر بعناية، ومخلل البندورة والقثاء، فجلست أعبُّ العرق كأنما كننت على سفر والعرق يسبقني وها قد التقينا.

شـربت كأسـاً ثم ثانية، ثم ثالثة، ولم تنته المسـيرة في التلفاز، قلت أقلبها على المحطة الثانية لعل وعسـى، كانت المسـيرة في أولها، حينذاك، قررت أن أغير الكأس، فقمت إلى المطبخ حاملاً كأسي بيدي، وضعته تحت الحنفية، وغسلت يدي، ثم جلبت كأساً أخرى معي، وعدت إلى مكاني.

ملأت الكأس عرقاً وأطفأت صوت التلفاز، زيّقت شباك البلكون كي أرى وجه ربي، كما يقولون، رأيت السـماء، سـألت نفسـي، منذ كم من الوقت لم أر السـماء، لم أدر، سـنة، سـنتان، لا أدري، كانت السـماء زرقاء داكنة تزينها النجوم والقمر، لم يكن بها غيوم، فجلسـت أراقبها من مكاني وأنا أحتسـي العرق وأمزمز، أصـبح التلفاز خلف ظهري، وأمامي الشـباك حيث تظهر السـماء بثوبها الأزرق، والنجوم تتلألأ عليها، كم كنت محروماً من هذا المشهد، رحت أتأمله ولا أشبع منه، ثمّ نزلت ببصري من السماء إلى الأرض، فرأيت دخاناً أبيض يتحول إلى أصـفر وبنفسـجي فوق إحدى البنايات، ثم شاهدت امرأة تشير إلي بيدها، أنا طار عقلي، أفي مثل هذا الوقت تصرخ لي، إنها تشير لي بيدها، هذا غير معقول، ولكنها تشـير، أأرفع يدي لها؟ ولكنها لن تراني، فأنا جالس هنا في غرفتي، غرفة الضـيوف الذين لن يحضـروا، ومزيق باب البلكون، فمن أين تراني، ولكنها تشير إلي، والأنكى من ذلك إنها تتعرّى ربما هنالك مسبح أو ما شابه، يا إلهي، لقد شـلحت القميص، وها هو رجل آخر وآخر، يجلبان لها زورقاً، تريد أن تركب الزورق، هذا حقّ لها، ماء وزورق وامرأة جميلة، كم تقدر عمرها؟ إنها في الثلاثين لا أكثر، ربما تنظر إلى أحد غيري، ولكنها تنظر إلي، سـأشـير لها، فقمت ونهضـت ورفعت نفسـي على الكرسي، وأشرت لها بيدي، ها هي تجاوبني، أين العرق؟ صببت كأساً جديدة وأطفأت التلفاز لأنه صـار يخش على الفاضـي، فتحت شـباك الشـرفة أكثر، فأضـاء القمر الغرفة، رغم أنني لم أفتح الشـباك كله، فالأمن مطلوب، إنها تراني من هنا، وأنا أرأها، أنا لست بحاجة إلى أن أرى غيرها، كيف يمكن أن أصل إليك، إنها تشير لي أن أحضر

إليها، كيف سأعبر الحارات والشوارع وأصل إلى البناية التي تسكنها، عموماً ستكون قصراً، أو ما يشبهه، سأقرع الجرس، وسيبلغني الحارس أنها تنتظرني، عند ذاك، سأدخل وأمشي على العشب الأخضر السندسي، من أين جاءت هذه الكلمة السندسي، ربما من مواضيع التعبير عند الطلاب، أكيد من دفاترهم، فأنا لا أستخدمها إطلاقاً. أين العرق؟ وصببت كأساً جديدة ونظرت إليها، كانت قد خلعت ثيابها الخارجية، فظهرت كالأبانوسة المحترقة، دعها تحترق في حبّك، كلما كنت ثقيلاً، ازدادت تعلقاً بك، هي تشير أن آتي إليها، وأنا سأشير إليها أن هذا غير ممكن، ها هو الدخان ينتشر أصفر وبنفسجياً، ثم أبيض، وهي ركبت زورقها، إنها ترتدي ثيابها الداخلية، لا، إنها ثياب السباحة من قطعتين. انظر، ربما ثديها نافر، هذا سيجعلني أكثر شبقاً حين أراها، فأهجم عليها، وهي تصرخ، لا، لا، اتركني، وأنا لن أتركها، سأقضم شفتيها، وخدودها وحول رقبتها، سأعريها في الزورق وأقبل قدميها، ثم ساقيها، ثم بطنها، وثدييها وأشدها من شعرها، وهي تصرخ وتتأوّه، وتقول حرام عليك أنا بشر، وسوف لن أرد عليها، وعندما تستجيب لي، أكون... ولكن ربما هذا كمين، أي نعم ربما هو كمين من الجماعات الأصولية، أين العرق؟

وصببت كأساً جديدة، ورحت أتأمل المشهد بهدوء، رجل جالس وحيداً في بيته، الوقت، الساعة بعد منتصف الليل، لا أعرف كم هي الساعة الآن، يرى امرأة ترتدي المايوه البيكيني وتراه، ها هي تدعوه إلى مائها، الماء ملوّن بالدخان، ركبت زورقاً وتناديه، أليس هذا فخاً محتملاً؟ خديعة ما؟

الأصوليون لا يعرفون مثل هذه الخدع، ولم يفعلوها مع أحد من قبل، ربما تكون امرأة شهوانية تبحث عن أحد يلاعبها حتى الصباح، يلاعبها ويداعبها، وقد وجدته، إنه أنا، الجالس وحيداً في غرفة الضيوف يشرب العرق، ترى هل عندها مشروب... أكيد، سأصل إليها، وستخرج من الماء، ستقول لي تأخرت يا مضروب، فأجيبها، لا بأس الآن، ستستقبلني بيدها، وأمد يدي مصافحاً لتأخذها ونمشي على بساط مضروب من ورق الورد، ووسادة من لون الورد الأبيض، نجلس وأمامنا بركة الماء، وكما توقعت في الثلاثين من عمرها، تصب لي كأساً من الويسكي، تضع الثلج أولاً،

ثم تدلق الويسكي، فيعرش برد على خارج الكأس، تصب لها كأساً أخرى، وتلعب بإصبعها فوق الثلج، تسألني عن اسمي، فأجاوبها، ثم أغازلها، أقول لها قصائد من الشعر الذي لم ينشد لامرأة من قبل، فتشعر بالنشوة، وتلقح يدها إلى الوراء ورأسها كذلك، ها إني أراها أمامي، وحيدين كما الحقيقة، ولكن أين ذهب الرجلان؟ قد يكونان حراسها الشخصيين، وهما لا يكونان معها حين تكون مع أحد، شقراء، جسدها له لون عذابي، صاحت تعال، ومدت يدها اليمنى، فاندفعت إليها أقبلها، أشمها، وأدخل في لونها، أنا الذي أحرق السفن وليس طارق بن زياد، أنا الذي مزق الأشرعة... أنا الذي سوى...

استيقظت مبكراً مع ألم في رأسي من ناحية الخلف شديد، كنت أنام على الصوفة وحولي الأشياء التي كانت ليلة البارحة، حاولت التذكر، ماذا فعلت ليلة البارحة، نهضت إلى الباب الخارجي للبلكون، ماذا، إنها، إنهم هناك، والدخان يتصاعد ممّا يفعلونه إنهم عمال البناء يقومون بإطفاء الكلس... لقد كنت أحلم...

عدت إلى الغرفة، وأغلقت الباب على مهل، وجمعت ما تسممت به البارحة قبل أن تستيقظ زوجتي فتعاتبني على نومتي هذه، أسرعت إلى المطبخ ووضعت كل شيء مكانه، ثم وضعت فنجاني ماء في الركوة، وضعت البن، غلت القهوة، فصببتها في فنجانين، واحد لي وواحد لزوجتي، التي بدأت أسمع صوت نهوضها من النوم.

****

هذا المساء لي، لي وحدي، فقد تسللت إلى الشرفة ومددت المدة المخططة بعدة ألوان، ووضعت الوسادة تحت رأسي، لقد كنت أراقب المساء، كانت السماء كرة زجاجية زرقاء وكنت أسبح فيها، أطير في السديم، وأعلو ثم ألقي نفسي، أقف فوق الشمس... لا، الشمس ستحرقني، إنني لا أستطيع أن أنظر إليها، فلأسبح إذاً، وأجعل رجلي فوق الرجل الأخرى وأضع يديّ وراء رأسي، وأسرح بعيداً، أذكر الفتيات اللواتي أحببنني، أذكر واحدة بعينها، يومها جاءت وهي تحمل حقيبة، قالت: تحذر ما فيها،

فقط عندما أنده عليك، أغمض عينيك، قلت وليكن، ودخلت إلى الغرفة الثانية، وتأخرت، إلى أن سمعت صوتها، فأغمضت عيني فجاءت إلي ووضعت يدها علي عيني، ثم رفعتهما، وقالت افتح عينيك يا سمسم، ففتحت عيني، كانت أجمل امرأة في الوجود ترتدي ثياب العرس، وضعت غواء على وجهها، كأنها العروس، قل ما شاء الله.

المهم يا صاحبي، قالت: خذني، فإني فتاة بالغة راشدة وسوف يأتي يوم ينكحني فيه أحد ما، يعني رجل، وأنا اخترتك لتكون رجلي، قل تزوجتك على سنة الله ورسوله، على مهر سورة من القرآن الكريم.

قلت لها، وهنا اشتعلت خطاطة، رصاصة خطاطة، باللون الأصفر، واندفعت واحدة ثانية باللون الأحمر، وثالثة باللون الأزرق، تبعها مشط كلاشينكوف ثم مشط آخر، ثم رشاش 500، وابتدأت المعركة، إطلاق رصاص من كافة الجوانب، زخات تليها زخات والقنابل الدخانية والرصاص الخطاط والناس يتراكضون، كل منهم يقول الآن جاء دوري، وأنا هكذا تجرأت ونظرت إلى أسفل الشرفة، موجات من الخلق تهرول مسرعة وأصوات الرصاص تخترق الحجاب الحاجز، أقصد تتداخل مع بعضها، ما الذي جرى، لا أحد يعرف، فمن كان يساوم البائع ترك المساومة وهرب إلى طريق بيته، ومن كان يختار أي بضاعة يأخذ لأولاده، ترك الاختيار وأسرع إلى، لا يعرف إلى أين. ومن أعطى البائع ثمن الأشياء التي اشتراها، ترك الأشياء عند البائع وأسرع يعدو، والبائع ترك بضاعته ووجد له مكاناً يقيه شر هوشة الرصاص.

سأل أحد ما، ما الذي يجري، فجاوبته امرأة الله أعلم خربت البلد، وكيف يمكن أن تخرب البلد، فقالت المرأة، ألا ترى؟ ألا تسمع؟ تضرب بشكلك.

أصبحت البلد على كف عفريت يدور بها دورة ثم أخرى، ولا أحد يعرف شيئاً مما قد يحصل أو مما قد حصل، فقط إطلاق رصاص، أو صوت إطلاق رصاص ورشقات مخططة، قلت هذا المساء ليس لي، وأنا غير مسؤول عن السماء ولا من يحزنون، الكل كان يسأل... ماذا حصل؟ وبين الغادين والرائحين جاوب شاب ترك الدورية من ساعته، لقد قتل إبراهيم اليوسف. أنا استغربت ومددت رأسي أكثر، هل يمكن لهذا الرجل أن يموت.

لقد قتل إبراهيم اليوسـف، الرجل الذي يذوب بين يديك، ولم نكن نصـدق قتل الذي يظهر كل يوم في ثياب تخفي شـخصـيته الحقيقية، قتل الشـيخ والراهب، البعثي ورجل الدين الأصولي، قتل وسحل بالدبابة، الذي كانت تتناقل الألسنة الأساطير عن حياته، والذي تناقلت الألسنة الأساطير عن مقتله، وكيف أن روحه خرجت تفتش بين الزحام عمن تلتجئ إليه، فطارت في الغمام، لقد رآها الناس تصـعد إلى السـماء، ومنهم من يقول إن روحه لم تجد مكاناً تذهب إليه، فبقيت معلقة بين الأرض والسماء.

بقيت حتى ساعة متأخرة أسـهر على الشـرفة، فاليوم الناس مرتبكة ولا أحد يمكن أن يرد على أي أحد، ثم ذهبت إلى الصوفة وتركت كل شيء على ما هو عليه...

في الصـباح رنَّ الجرس دقات متواصـلة، فتحت زوجتي الباب كان أخي الثاني قادماً من بيروت، قال لي وأنا أفتح عيني:

البس ثيابك بسرعة.

ولكن...

قلت البس ثيابك.

ولبسـت ثيابي، كانت السـيارة ماركة دودج تنتظرنا أسـفل البناية، دلفت فيها، وأنا لا أعرف كيف فكر أخي بهذه السرعة.

وعند فترة ما بعد الظهر، كنت اتفتل بشـارع الزيتونة في بيروت، أنظر إلى البحر فلا أشـبع من النظر إليه، كنت أمشـي، وأمشـي، حيث لا خوف من أحد، ومنذ هذا اليوم أغلقت النافذة ورائي، وأصـبح لكل حادث حديث، نظرت إلى السـماء، كان القمر بدراً تلك الليلة، وفجأة لمحت انشقاقاً فيه من أوّله إلى آخره... لقد انشقّ القمر.

فيصل خرتش

روائي سوري 1952

كاتب وروائي سوري من مواليد مدينة حلب، حيث نشأ وتعلّم، وتخرّج في قسم اللغة العربية بجامعة حلب، ثم نال دبلوماً في اللغات الشرقية القديمة عام 1983. بدأ الكتابة في أوائل السبعينيات، وبرز اسمه في الصحافة الثقافية العربية كاتِباً ومراسلاً أدبياً لصحف ك*الشرق الأوسط* و*الحياة* و*البيان*.

له مسلسلان تلفزيونيان، وفيلم سينمائي عن روايته (تراب الغرباء) من إخراج سمير ذكرى، الذي حاز على جائزة أفضل فيلم سينمائي في مهرجان القاهرة عام (2000) ويتناول سيرة الكاتب عبدالرحمن الكواكبي.

تميّز أسلوبه بالسرد المتدفق واللغة المكثفة، وتناولت أعماله قضايا الإنسان، والهوية، والتحولات الاجتماعية في العالم العربي. نال عدداً من الجوائز الأدبية الرفيعة، منها جائزة نجيب محفوظ للرواية العربية، وجائزة الناقد من دار رياض نجيب الريس، وجائزة الطيب صالح للرواية العربية، إلى جانب جوائز للقصة القصيرة من *الطليعة* و*أخبار الأدب* وغيرها.

صدر له:

الأخبار (1986) مجموعة قصصية (وزارة الثقافة: دمشق)

موجز تاريخ الباشا الصغير (1991) رواية (رياض الريّس للكتب والنشر: بيروت).

خان الزيتون (1995) رواية (دار الصداقة: دمشق).

مقهى المجانين (1995) رواية (المسار للنشر والأبحاث والتوثيق: دمشق).

تراب الغرباء (1995) رواية (وزارة الثقافة: دمشق).

حمّام النسوان (1999) رواية (المسار للنشر والأبحاث والتوثيق: دمشق).

شجرة النساء (2001) مجموعة قصصية (وزارة الثقافة: دمشق).

مقهى القصر (2004) رواية (وزارة الثقافة: دمشق).

شمس الأصيل (2008) رواية (الهيئة العامة السورية للكتاب – وزارة الثقافة: دمشق).

دوّار الموت ما بين حلب والرقة (2017) رواية (دار الريّس للكتب والنشر: بيروت).

أهل الهوى (2018) رواية (جائزة الطيب صالح: الخرطوم).

NOVEL

هذه الرواية تتشابك فيها خيوط العذاب والذكريات، مقدمةً لمحة سوداوية عن سوريا في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات. يغوص السارد، الشخصية الرئيسية، في استعادات مكثفة لحياته، متذكراً علاقاته المتشابكة في اليمن الديمقراطي قبل وحدته وبيروت.

تتعرض الرواية بوضوح لموضوع الإخوان المسلمين والصراع بينهم وبين السلطة في سوريا، من خلال لقاءات السارد مع صديق له في الجيش تجند في صفوفهم. تتطرق الرواية إلى الاغتيالات ومحاولات قتل السارد لكونه ناشطاً وضمن صفوف حزب البعث الحاكم.

تستعرض الرواية حادثة المدفعية ومقتل طلاب الضباط، متطرقة إلى اتهام السلطة لجماعة الإخوان المسلمين بارتكابها. تصف كيف سمح هذا الحدث للسلطة باتخاذ إجراءات قمعية ضد الإخوان المسلمين باسم حماية الناس، وعرض صور القتلى على التلفاز مع إطلاق تسميات مختلفة عليهم.

تمتد الرواية لتشمل مواضيع أوسع مثل اليهود وحرب عام 1948، وعبد الناصر، والبعثيين. كما تتناول قصة مدير يجلس في بيته لا يغادره بسبب الأحداث، وعلاقته بزوجته وأهله وجيرانه.

في النهاية، يجد السارد نفسه هارباً إلى بيروت، المدينة التي تمثل له الحماية والملجأ من الأعباء التي وُضعت عليه، متخلصاً من عبء المدرسة والحزب والمخابرات والقتل والضرب. ينظر إلى البحر في شارع الزيتونة، متحرراً من الخوف، ليغلق نافذة الماضي خلفه ويبدأ فصلاً جديداً من حياته.

FAISAL KHARTASH

THE TAYRANT

9 781326 353872

Jidar
Culture & Publishing